جامعة محمد خيضر بسكرة
كلية الآداب واللغات
قسم الأدب واللغة العربية

مذكرة ماستر

لغة وأدب عربي
دراسات أدبية
أدب عربي القديم
رقم :

إعداد الطالبتين :
نبيلة بن عباس
صورية بن عاشور
يوم : 2022/06/27

رثاء المدن في الشعر الأندلسي

نماذج مختارة

لجنة المناقشة :

إلياس مستاري	أستاذ	جامعة مُحَمَّد خيضر ـ بسكرة ـ	رئيسا
رضا معرف	أ.محاضر	جامعة مُحَمَّد خيضر ـ بسكرة ـ	مشرفا ومقررا
جميلة قرين	أ.محاضرة	جامعة مُحَمَّد خيضر ـ بسكرة ـ	مناقشا

السنة الجامعية : 2021 ـ 2022م

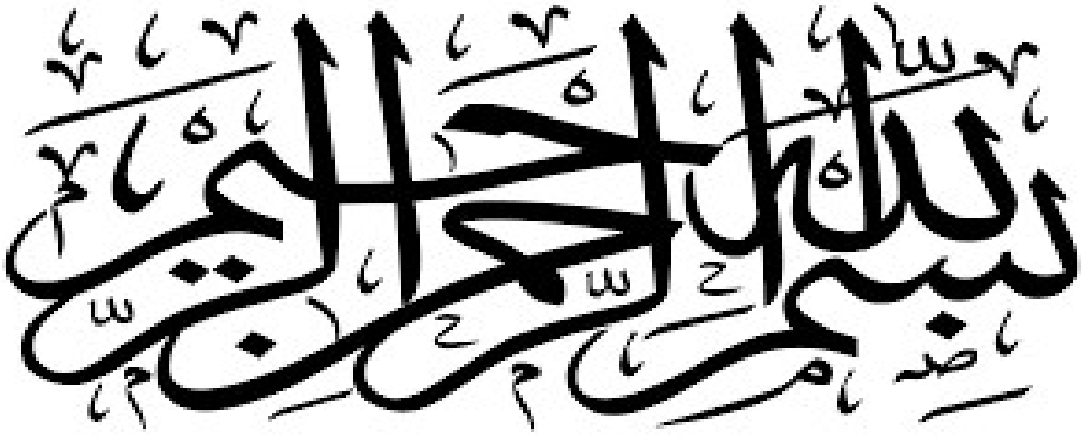
بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

قال الله تعالى: ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾

سورة إبراهيم الآية:7

الحمد الله على إحسانه والشكر له على توفيقه وامتنانه ونشهد أن لا إله إلا الله

وحده لا شريك له تعظيما لشأنه ونشهد أن سيدنا محمد ونبينا محمد عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم

بعد الشكر لله سبحانه وتعالى على توفيقه لنا لإتمام هذا البحث نتقدم بالشكر والتقدير للأستاذ " **رضا معرف**" عرفانا وتقديرا بفضله الإشراف على هذه الدراسة ومتابعته لجميع مراحلها فأسأل الله أن يجعل كل ما قدمه في ميزان حسناته

كما أتقدم بالشكر والتقدير لكل من ساعدنا على إنجاز رسالتنا من خلال بذل النصيحة والمشورة والشكر لجميع هيئة التدريس في قسم اللغة العربية كلية الآداب واللغات جامعة محمد خيضر بسكرة

الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى من قال فيهما سبحانه وتعالى: ﴿

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الإسراء الآية 23

إلى من أبصرت بها طريق حياتي وأقربهم إلى قلبي أمي التي كانت

سندا لي

إلى والدي حفظه الله

إلى مايذكرهم القلب سهام وعبدالله

إلى كل العائلة الكريمة وبالأخص خالاتي سعيدة، عائشة، خضرة، أمال

إلى كل من تقاسمت معها بحثي صورية

إلى كل الأصدقاء والأخوات أسماء نسرين، ياسمين

إلى كل روح فقدتها جدي وجدتي رحمهم الله

نبيلة بن عباس

الإهداء

إلى رمز الحب وبلسم الشفاء إلى القلب الناصع أمي الحبيبة

أطال الله في عمرها

إلى من حصد الأشواك عن دربنا ليمهد لنا طريق العلم أبي

الغالي حفظه الله

إلى من حبه يجري في عروقي ويلهج بذكراه فؤادي أخي الغالي

وزجته

إلى أخواتي الحبيبات وأولادهم كل بإسمه حفظهم الله

إلى من تذوقنا معهم أجمل اللحظات صديقاتي صابرين وسلمى

وفيروز جمانة آسيا بسمة بثينة

إلى صديقتي في إنجاز هذا العمل نبيلة

صورية بن عاشور

المقدمة

الشعر نوع من الكلام الصادر عن أغوار النفس الإنسانية، فهو أعرق فنون القول عند العرب، ووثيق الصلة بتجاربهم الحياتية وأشد التصاقا بوجدانهم. كما أنه يعبر عن ملامح شخصيتهم وبطولاتهم ومشاعرهم، يعتمد الصدق الفني والتصوير الدقيق المنفرد بمجموعة من الأغراض الشعرية، فالشعر الأندلسي من سمات الحضارة الأندلسية ينفرد بمجموعة من الخصائص منها الوضوح، والبساطة، والتلميح إلى الأحداث والوقائع التاريخية، خاصة تلك المتعلقة برثاء الممالك والمدن المندثرة.

يعتبر الرثاء من فنون الشعر الذي أفاض فيه الأندلسيون ولا سيما مع المحن التي أصابت الأندلس، فغرض الرثاء من أشرف الأغراض الشعرية وأصدقها وأنشدها تأثيرا على المتلقي، نجده شائعا بالدرجة الأولى عند شعراء الأندلس ،فهم لم يجعلوا من هذا الفن وسيلة لرثاء موتاهم من الأحباب والأقارب والأمراء فقط، وإنما نراهم ولأسباب خاصة يتوسعون فيه ويطورون مفهومه، وذلك برثاء مدنهم التي سقطت في أيدي النصارى وهو فن من الفن الغنائي يعبر فيه الشاعر عن حزنه وتفجعه، وهو لون من ألوان التعبير يعكس طبقة التقلبات السياسية التي تمر بها عصور الحكم في مراحل مختلفة .

وقد وقع اختيارنا على هذا الموضوع الموسوم " **برثاء المدن في الشعر الاندلسي نماذج مختارة** " لأسباب منها :

– الرثاء أكثر الفنون الشعرية اتصالا بالنفس الإنسانية يخاطب شاعر الإنسان وعواطفه متطرقا ويكشف الحقائق الكبرى المتعلقة بالموت والحياة.

– أن موضوع الرثاء ثري ومؤثر، الأمر الذي جعلنا نميل لمثل هذا الموضوع، فلولا الحزن لما شعرنا بقيمة وطعم السعادة.

انطلق بحثنا من إشكالية نطرحها في شكل سؤال رئيسي هو: **كيف واجه الشعراء الأندلسيون المحن والنكبات التي مرت بالمدن الأندلسية؟**

تفرعت عنه أسئلة ثانوية :

- ما هي الأغراض الشعرية السائدة في البيئة الأندلسية؟
- ما مفهوم الرثاء ؟ وما هي أنواعه؟
- ما هي أهم المدن الأندلسية التي سقطت على يد النصارى؟
- كيف واجه النكبات رثاء شعراء المدن في الأندلس؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات اعتمدنا خطة مكونة من: مدخل ضم أهم الأغراض الشعرية المتناولة في الأندلس مع التركيز على غرض الرثاء و أهم أنواعه (الندب ، التأبين ، العزاء) إضافة إلى أربعة فصول كل واحد منها بعناصر أما الأول منها تضمن " **رثاء مدينة بلنسية** " الذي تطرقنا فيه إلى التعريف بالمدينة وأهم الحروب التي حلت بها مع نماذج شعرية في رثاء بلنسية. أما الفصل الثاني فجاء بعنوان" **رثاء مدينة قرطبة** " الذي تطرقنا فيه لتعريف بالمدينة وتاريخها العريق، ضف إلى ذلك نماذج شعرية. أما بخصوص الفصل الثالث " **رثاء مدينة طليطلة** " ذكر فيه التعريف بالمدينة من آثار وأحوال مع نماذج شعرية في رثاء سقوط المدينة. وجاء الفصل الأخير تحت عنوان " **رثاء مدينة إشبيلية** " وبدوره تضمن التعريف بمدينة إشبيلية الأندلسية، مع نماذج شعرية في رثاء المدينة. وجاءت الخاتمة حوصلة كنتائج لما تم عرضه في هذه الدراسة .

أما المنهج المعتمد المنهج الفني الأسلوبي و التاريخي لتناسبه وموضوع البحث إضافة إلى أليتي الوصف والتحليل .

وقد استندنا على مجموعة من المصادر والمراجع المتنوعة منها كتاب " **الأثار الأندلسية** " لمحمد عبد الله عنان، وكتاب " **صفحات من تاريخ المدن الأندلسية** " لتوفيق محمد علي الحجاج، وديوان ابن شهيد الأندلسي، وكتاب " **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب** " لمؤلفه المقري التلمساني .

ومن أهم الصعوبات التي واجهتنا في إعداد موضوعنا :

- تشعب وتنوع المراجع حول الموضوع مما أدى إلى تشابك الأفكار.

– صعوبة تحليل القصائد الشعرية لغموض مصطلحاتها .

وختاما نتوجه بخالص شكرنا إلى كل من قدم لنا يد المساعدة في إنجاز هذا البحث وبالأخص الأستاذ المشرف " **معرف رضا** " من توجيهات ونصائح ومصادر ومراجع وإليه أكرر واجب الشكر.

والله ولي التوفيق.

المدخل:

الرثاء في البيئة الأندلسية

أولا: الأغراض الشعرية

ثانيا: تعريف الرثاء

ثالثا: أنواع الرثاء

أولا: الأغراض الشعرية

لم يترك الأندلسيون حالة من الحالات النفسية، والإجتماعية، إلا نظموا فيها شعرا، ولم يدعو غرضا من الأغراض التي يصح أن يقال فيها الشعر إلا ضربوا فيه بسهم فلا تكاد ناحية من نواحي الحياة عندهم لم يكتبوا فيها الشعر، يعد شاهد وبرهان قاطع على ذلك بتعدد الأغراض الشعرية واتساع مجالاتها، فأكثروا من وصف مناظرها الجميلة كالمنتزهات والرياض كما أقبلوا على وصف الخمر. أثرت النكبات السياسية في شعر الرثاء فاتجه الشعراء الى رثاء مدنهم التي سقطت على يد النصارى، جاءت موجة من الزهد والتصوف، فلجأ بعض الأندلسيين عن الإبتعاد والعزلة عن ملذات الدنيا ووجدوا في ذلك عزاء لما أصاب وطنهم من محن ونكبات، وتفننوا أيضا في غرض المدح والغزل .

أ- الوصف :

1- وصف الطبيعة :

وهب الله الأندلس طبيعة ساحرة ووافرة الجمال، بجبالها الخضراء وسهولها الجميلة وتغريد طيورها على أغصان الأشجار كل هذا المناظر الخلابة فتنت شعراء الأندلس فتغنوا بها، يعكس شعر الطبيعة ارتباط الاندلسيين ببيئتهم وتعلقهم بمظاهر الجمال ووصف محاسنها انعكاسا للشعور الوطني في نفوسهم وتعبيرا عن نزعة اندلسية التي ظهرت في شعرهم بشكل واضح[1].

ساهمت على يد الإنسان فيها على زيادة جمالها الطبيعي بأن راحت تبدع في التعمير وتتفنن في التشييد « **فأساس الحضارة الأدبية في الأندلس تلك الطبيعة التي كانت ترسل النسمات أنفاس موسيقية تؤخذ شعرا وتلفظ ألحانا وبذلك حبب إلى أهلها الأدب وطبعوا على هذه التسمية** »[2].

[1] فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، ط1 ،2007م ، ص 127 .

[2] مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط2 ، 1974م ،ج3، ص 269 .

يقول ابن خفاجة في وصف الأندلس :

يـــا أهـــل الأنـــدلس لله دركـــم مـــاء وظـــل وانهـــار وأشـــجار
ماجنـــة الخلـــد إلا فـــي ديـــاركم ولـــو تخيـــرت هـــذا كنـــت اختـــار
لا تختشـــوا بعـــد ذا أن تـــدخلوا فلـــيس تـــدخل بعـــد الجنـــة النـــار[1]

ب- الغزل :

بلاد الأندلس كل شيء فيها يدعو الى الغزل من طبيعة جميلة وحياة حضرية ناعمة ومجالس أنس ورخاء وخمر وغناء غالبا ما تكون المادة الشعرية للشعراء نابعة من تجاربهم الوجدانية الخاصة ومن معاناتهم الشخصية والعاطفية في الحياة الأندلسية ويعد الغزل اكثر فنون الشعر التي طرقها الشعراء الأندلسيون ولم يخرج الغزل الأندلسي عن الإطار العام للغزل العربي فقد جاء غزلهم في معظمه غزلا تقليديا تتردد فيه تلك المعاني والأفكار التي ترددت في الشعر المشرقي كانت هناك علاقة وطيدة بين محاسن المرأة وبين الطبيعة حتى لا تكاد تنفصل احداهما عن الأخرى .

قال المقري: « **أنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدودا، ومن النرجس عيونا، ومن الأس أصداغا، ومن السفرجل نهودا، ومن قصب السكر قدودا، ومن قلوب اللوز وسرر التفاح مباسم ومن ابنة العنب رضابا** » .

قول مروان الطليق في الغزل :

ودعت من أهوى أصيلا ليتني ذقـــت الحمـــام ولا أذوق نـــواه
فوجـدت حتـى الشـمس تشـكو والـورق تنـدب شـجوها بهـواه
وعلـى الأصـائل رقـة مـن بعـده فكأنهـــا تلقـــو الـــذي ألقـــاه [2]

---

[1] أبو الفتح بن عبد الله بن خفاجة، ديوان ابن خفاجة، تح:عمر فاروق الطباع، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ط، 2006م ، ص133 .

[2] فورار محمد بن لخضر، الشعر الأندلسي في ظل الدولة العامرية –دراسة موضوعية وفنية–، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د.ط، 2009 م ، ص – ص101 – 102 .

ج- المدح:

المديح من أغراض الشعر الواسعة فقد أكثر منه الشعراء، مخصصين في مدائحهم الأمراء والوزراء ومن المؤكد أن شعر المديح كان يعتمد على الشعر القديم في معانيه وأفكاره فلم نجد تجديدا، حيث كان الشعراء عندما يمدحون الأمراء يحاولون أن يقولوا في مدحهم أوصاف لم تقل لأمراء من قبلهم .

ومن الملاحظ في شعر المديح عند الأندلسيين أنهم يهتمون بالصناعة الفنية والتنوع في أساليبها بين الجزالة، والفخامة، والرقة، والسهولة، طبقا لما تقتضيه طبيعة المعاني، وأما من حيث بناء القصيدة فتبنى القصيدة عندهم من مقدمة طللية، فنسيب فوصف للرحلة، فتخلص للمدح ظهر في البيئة الأندلسية لون آخر من ألوان المديح وهو ما يسمى بالمديح الحربي الذي يختص بالتغني بالبطولات والأمجاد التي حققتها الأمة على أعدائها[1].

ومن المدح: ابن دراج يتغنى بانتصارات المظفر على أعدائه ويسجل أمجاده كما كان شأنه مع أبيه المنصور ومن أبرز قصائده فيه رائيته التي هنأه فيها بانتصاراته على المملكة (ليون) :

لئن سرت الدنيا فأنت سرورها وإن سطعت نورا فوجهك نورها
سلام على الأيام ما شمت للعلا أهلتهـــا واســـتقبلتك بـــدورها
وبوركت الأزمان ما أشرقت لنا بوجهك هيجاواتها وقصورها [2]

د-الغربة والحنين:

[1] عائشة إبراهيم، موسى سلامة محسن، صورة المرأة في الشعر الأندلسي – في عصري الطوائف وبني الأحمر –، مذكرة لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية، تخصص أدب ونقد، جامعة أم درمان الإسلامية، 2007- 2008 م، ص47 .

[2] وسام قباني ، عامريات ابن دراج القسطلي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د.ط، 2011م، ص33.

عرف الحنين في الشعر العربي منذ القديم إلا أن الأندلسيين ضربوا فيه بسهم وافر، نتيجة عاطفة صادقة ونفوس معذبة وإحساس مرهف فكان حنينهم إلى الأندلس من أصدق ما قيل في هذا الباب وأبلغه على مر العصور.

لقد قدر على الأندلسيين أن يعيشوا محنة اغتراب مريرة بعد انتثار عقد الأندلس وسقوط معظم مدنه في أيدي النصارى. فقوض كثير من الأندلسيين خيامهم، ورحلوا عن وطنهم، وتركوا معاهدهم وديارهم، وفارقوا أهلهم وأحبابهم إلى غير رجعة وذاقوا مرارة التشتت والضياع .

يقول ابن حربون :

لله ماهاج لمع البارق السارى ... على فؤاد غريب نازح الدار
كان الصبا وطرى اذ كنت في ... فقد فجعت بأوطاني وأوطارى
وطني فأين تلك الربى ... وأين فيها عشياتي وأسحارى
بها ما للزمان(ألا حر ينهنهه؟) ... يفرى اديمى بأنياب وأظفار[1]

هـ- الرثاء :

الرثاء من الفنون الشعرية الأكثر التصاقا بالوجدان البشري، لذا فهو ينمو ويزدهر حيث يصاب هذا الوجدان ويكلم وهو أكثر الإصابات المفجعة التي إنتابت الإنسان وتنتابه، منها ما يتدرج في سنة الحياة حيث تكون الإصابة في البدن بإعتبار أن الموت باب وكل إنسان داخله ومنها ما يمكن اعتباره من صنع الزمان وقوته، « **جرى الشعراء الأندلسيون في رثائهم على سنن المشارقة واقتفوا أثر المرثية المشرقية في معانيها وبنائها، فكانوا يستهلون مراثيهم في الغالب بمقدمة تتضمن النظرات التأملية في حقيقة الموت والحياة ثم ينتقلون إلى ذكر مآثر الميت ومكارمه ووصفه بما يليق أو يتناسب**

[1] فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2007م ، ص- ص 158 – 159 .

مع مكانته الإجتماعية ثم ينفذون فجائع الدنيا لتأيس بذلك ولى الهالك، وقد يختمون مراثيهم بالدعاء للميت والترحم عليه أو بطلب السقي له على عادة الشعراء القدماء »[1]

تطور الشعراء الأندلسيون من رثاء الأهل والأقارب والأمراء إلى رثاء مدنهم التي سقطت على يد النصارى وأخرجوا منها متشردين في أنحاء الأندلس .

ثانيا: تعريف الرثاء

أ- لغة:

جاء في لسان العرب لإبن منظور: في مادة " **رثى** " : من الفعل رثى ، رثى فلان فلانا يرثيه رثيا ومرثية إذا بكاه بعد موته قال: رثاء بعد موته قيل رثاه يرثيه ترثية ورثيت الميت رثيا ورثاء ومرثاة ومرثية ورثيته، مدحته بعد الموت وبكيته وثروت الميت أيضا إذا أبكيته وعددت محاسنه وكذلك إذا نظمت فيه شعرا[2] . وجاء في صحاح الجوهري « **رثيت الميت مرثية وثروته أيضا إذا بكيته وعددت محاسنه وكذلك إذا نظمت فيه شعرا، ورثى له رق له »**[3] .

أما الزبيدي في كتابه " **في تاج العروس**" فيعرفه: « **رثيت الميت رثيا بالفتح والرثاء والرثاية يكسر هما مرثاة ومرثية مخففة وعلى الأخير »**[4] .

أما مقاييس اللغة: « **في مادة رثى (ر ث ى): الراء والثاء والحرف المعتل اصل يدل رقة وإشفاق، يقال: رثيت لفلان رققت...وقولهم: رثى الميت بالشعر »**[5] .

---

[1] فوزي عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ص166 .

[2] أبو مكرم محمد بن علي أبو الفضل جمال الدين بن منظور، لسان العرب، مادة (ر ث ى)، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، ج14، ص-ص308 – 309 .

[3] إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: محمد تامر، دار الحديث، القاهرة، د.ط، 2009م، ص425 .

[4] محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، 1971م، ج7، ص 68 .

[5] أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ، معجم مقاييس اللغة ، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ط، 1999م، ج2، ص488 .

ويذهب البستاني في " **المحيط** " إلى أن الرثاء هو: « **رثى الميت يرثيه رثيا ورثاء ورثاية ومرثاة ومرثية رثأته بالهمز لغة في رثيته ورثاه أيضا نظم فيه شعرا ورثى له رحمه ورق له** »[1]. وأيضا جاء عند الخليل: « **يعني البكاء على الميت ومدحه** »[2] .

وعليه نلاحظ أن هذه التعريفات تشترك في معنى واحد وهو البكاء على الميت وتعداد محاسنه ومدحه عند موته .

ب – اصطلاحا :

الرثاء هو « **ذكر مناقب الميت ومآثره ومفاخره، ووصف الحزن عليه والجزع لفقده، وبيان مكانته في قومه وأثره في مجتمعه الذي كان يعيش فيه** »[3].

وليس بين الرثاء والمدح فرق إلا أنه،« **يخلطه بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت مثل: كان أو عدمنا به كبت وكبت ، وما يشاكل هذا وليعلم أنه ميت** »، وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة، مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام، إن كان الملك ملكا، أو رئيسا كبيرا[4] .

والرثاء هو التعبير عن تجربة الحزن والأسى واللوعة والفقدان عزيز وهو يدل على وفاء الشاعر لمن رحل على الدنيا فهو يعلم مكارم الأخلاق إضافة إلى ذكر محاسن الراحل ويكون بهذا أبعد أثرا بسبب صدق العاطفة[5].

---

[1] بطرس البستاني، قاموس محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، د.ط، 1987م، ص323 .

[2] الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م، ص 97 .

[3] عبد المنعم الخفاجي، الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992م، ص315 .

[4] ابن رشيق المسيلي القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: عبد الحميد الهنداوي، المكتبة العربية، لبنان، ط1، 2001م، ج1، ص208 .

[5] أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط7، 1998 م، ج2، ص320 .

ومما سبق نلاحظ تداخل بين المعنى اللغوي والإصطلاحي للرثاء الذي إنحصر في قول الشاعر في المرثي والبكاء عليه وذكر محاسنه ومكارمه.

ثالثا: أنواع الرثاء

أ- الندب:

وهو بكاء الأهل والأقارب والأصحاب حيث يعصف بهم الموت وبعبارة أخرى « **هو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة** »[1].

من هذا المنطلق فإن الندب أعمق أنواع الرثاء، لإرتباطه بعاطفة الشاعر ومدى تأثيره بالموقف وشدة معايشته له.

ويتناول الندب عدة جوانب نذكر منها:

- ندب الأهل والأقارب، ومن ذلك رثاء الخنساء أخويها صخر ومعاوية وكذا أباها تعد الخنساء أشهر شاعرات الرثاء في الشعر العربي القديم فقتل أخواها معاوية وصخر ومما أدخلها في بؤرة حزن عميق جعلها ترثيهم طوال عمرها وما قالته في أخيها:

ألا يـــا عـــين فـــانهلي بغـــدر وفيضـي فيضـة مـن غيـر نـزر

يا عين جودي بدمع منك مدرار جهد العويل كماء الجدول الجار

ب- التأبين:

وهو فن التعبير عن حزن الجماعة لفقدان الميت وأصل التأبين هو: « **الثناء على الشخص حيا أو ميتا، ثم استخدامه على الموتى فقط، إذا كان من عادة العرب في الجاهلية أن يقفوا على قبر موتاهم وعلى أطلال الذين ارتحلوا وكأنهم يريدون أن يحتفظوا بذكراهم على مر السنين** »[3] .

---

[1] شوقي ضيف، الرثاء – فنون الأدب العربي الفن الغنائي –، دار المعارف، القاهرة، 1955م، ج2، ص12 .

[2] حمدو طماس، ديوان الخنساء، دار المعرفة، لبنان، ط2، 2004م، ص43 .

[3] شوقي ضيف، الرثاء – فنون الأدب العربي الفن الغنائي– ، ص12 .

فالخنساء كانت تؤبن أخويها صخر ومعاوية لتصور فضائلهما وتوضح ما خسرته في حياتها .

لقد كان العرب في الجاهلية يجعلون بعض قصائدهم الخالصة للتأبين مثل:

مرثية دريد بن الصمة في أخيه عبد الله إذ يقول:

أرث جديد الجبل من أقرأم معبد بعاقبــة وأخلفــت كــل موعــد[1]

فقد استهل الشاعر قصيدته بالغزل، ثم مضى يرثي اخاه مصورا مصرعه، ومتحدثا عن خصاله الحميدة من شجاعة وجود وصبر.

ج- العزاء:

ومعلوم أن« **أصل العزاء والصبر ثم اقتصر استعماله في الصبر على كارثة الموت ، وأن يرضى من فقد عزيزا وبما فاجأه به القدر** »[2] .

مادام غرض الرثاء من أغراض الشعر الغنائي فأنه يعتبر موضوع هام من الموضوعات التي تتصل إتصالا مباشرا بالحماسة والمديح. فهو يتصل بالحماسة أكثر ما يقع في أيام العرب وحروبهم من القتل والثأر ويسقط في المعارك كبار الرجال من الرؤساء والفرسان، فيتصدى الشعراء بالرثاء لأولئك الرجال المفقودين الذين سقطوا. كما أنه يتصل بالمديح حيث نجد قدامة بن جعفر يقول: « **ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر من اللفظ ما يدل على انه هالك مثل " كان " و "تولى " و " قضى نحبه " وما أشبه ذلك وهذا لا يزيد في المعنى ولا ينقص منه، لأن تأبين الميت إنما هو يمثل ما كان يمدح به حياته** »[3] .

---

[1] عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، د.ط، 1982م، ص281 .

[2] شوقي ضيف، الرثاء ، فنون الأدب العربي الفن الغنائي، ص86 .

[3] أبو الفرج قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، تح: كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي للطبع والنشر، القاهرة ، ط3 ، دت ، ص100 .

ومن ذلك رثاء لبيد بن ربيعة لأخيه، إذ أعزى نفسه وذكر مكان الناس جميعا وهو الموت، فيقول:

فــلا تبعــدن ان المنيــة موعــد علينــا، فــدان للطلــوع وطــالع
أعــاذل مــا يــدريك إلا تضــنيا إذا رحل السفار من هواجع[1]

[1] ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص97 .

الفصل الأول:

رثاء مدينة بلنسية

أولا: التعريف بالمدينة بلنسية

ثانيا: نماذج شعرية من رثاء مدينة بلنسية الأندلسية

أولا: التعريف بالمدينة

تعتبر بلنسية في أكبر المدن الإسبانية وهي بستان الأندلس لكثرة رياضها وتنوع أشجارها وكثرتها تقع في شرقي الأندلس على مقربة من الشاطئ المغربي والجنوبي للبحر المتوسط. وتشتهر بزراعة القطن والذرة والفواكه، أما منتجاتها الصناعية فهي زيت الزيتون والمشروبات الروحية والأسمدة وتمتاز بحركة تجارية واسعة. وأهم الصروح الأثرية البارزة في بلنسية القلعة المسماة برج الجبلين، يوجد في بلنسية مركز للثقافة التاريخية، وتشتهر بلنسية بصناعة الأواني الخزفية، وتضم أشهر مصانع الخزف الإسباني .

نشأة بلنسية على نهر جار هو نهر توريا أو نهر الأبيض الذي تقع منابعه في جبل يعرف بجبل أرطونة على مقربة من البحر وتتفرع منه بحيرة تعرف ببحيرة تالبيرة. وهي بقية من البحر المتوسط انفصلت عنه بلسان من الأرض وتحولت مياهها إلى العذوبة بمرور الزمن وطولها عشرون كيلو متر ومنها إلى البحر قناة وفيها أنواع الأسماك كما يزرع على ضفافها الأرز. لقد حظيت بلنسية بنصيب وافر من الوصف في الكتابات المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين فهم يقدمون لنا صورا عن ما كانت تزخر به هذه المدينة من ثروات وما تميزت به من موقع جعلها من أكبر الموانئ في بلاد الأندلس يقول الإدريسي: « **بلنسية قاعدة من قواعد الأندلس في مستوى من الأرض عامرة القطر كثيرة التجار والعمار وبها أسواق و تجارات وحط وإقلاع...**»[1].

هذا فضلا عن ثروتها الزراعية التي جعلتها من أغنى المدن الأندلسية حتى إن الزهري يقول: « **بأن أغصان الأشجار المثمرة المتنوعة التي غطت مساحات واسعة قد أغلقتها بسبب كثافتها، وهذا يدل أن معظم الأراضي في بلنسية قد تمتعت بمستوى عال**

[1] أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، كتاب الجغرافية، تح: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، دمشق، 1968م، ص102 .

من الاستثمار الزراعي في العصر الإسلامي، ولم يترك من تلك المساحات الزراعية ما يمكن استغلاله »[1].

بلنسية خصها الله بأحسن مكان، وحفها بالأنهار والجنان، فلا ترى إلا مياها تتفرع، ولا تسمع إلا أطيارا تسجع، وجوها صقيل أبدا، لا ترى فيه ما يكدر خاطرا ولا بصرا .

وقد أحدث سقوط بلنسية وضياعها من المسلمين نهائيا سنة (636هـ)، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك فقال: « **وكان الرزء على المسلمين في أخذ بلنسية عظيما والخطب فيها أليما** ». وقد سجل الشعراء أحداث المحنة التي عاصروها بأنفسهم .

أما تاريخها السياسي فظهر على الساحة الأندلسية متميزا عن باقي دول الطوائف وخاصة بمجيء العهود المتعددة.عندما انهارت الدولة العامرية في بداية الألف الميلادي، وبالوقت نفسه استطاع محمد بن عبد الجبار أن يستلم السلطة من هشام المؤيد الذي كان على بلنسية[2]، وتعتبر قاعدة من قواعد الأندلس تتبعها عدة مدن وأقاليم وقرى وحصون، كانت بلنسية عند الفتح الإسلامي مجرد مرسى صغير وبعد الفتح الإسلامي أصبحت مدينة كبيرة مسورة سبورتين مبني بالحجر، عليه عدة أبراج دفاعية ، سكن بلنسية العرب والبربر في عهد الإمارة وفي عهد الطوائف تعاقب عليها العامريون وبسبب أوضاعها المزرية أعلن أهل " بلنسية " الثورة على القادر وقتلوه،وولوا قاضي المدينة ابن الجحاف بدلا منه، وفي العام (487هـ)، تمكن السيد القمبيطور من احتلالها ومما آثار حقد القمبيطور عليه شدة صموده وصبره، فأمر بإحراقه وأهله إلا أن المسلمين الروم والنصارى تضرعوا إليه في ترك النساء والعيال، فتركهم بعد جهد جهيد،وحفر للقاضي حفرة وأدخل فيها .

---

[1] أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ط، 2002م، ص 556 .

[2] توفيق محمد علي الحجاج، صفحات من تاريخ المدن الأندلسية، دار الضياء، عمان، ط1، 2005م، ص–ص95–96 .

وحاول المرابطون استردادها في العام (488هـ)، ولكن محاولتهم باءت بالفشل وقتل من جيشهم الكثير بسبب الغارات الكثيرة التي كانت تشن عليهم من داخلها، ولم يتوقف يوسف عن نجدتها فأرسل جيشا أخر نحو طليطلة حيث هزم قوات " **ألفونسو**" وقتل ابن السيد القمبيطور الوحيد في حين قتل جيش آخر ليوسف بعض جنوده، فأصابه الهم والغم ومات على أثرها عام (492هـ) وكانت زوجته قد استنجدت بـ " **ألفونسو السادس**" فانجدها ولكن اكتشف أن لا قبل له بجيوش يوسف بن تاشفين فانسحب من بلنسية ولكن بعد أن دمرها وأحرقها .

بالرغم من سقوط بلنسية روع الأندلس بسبب سياسة حرف الأحياء وحرق المعالم الإسلامية وتدميرها .

كانت الهجرة بداية لتشجيع الاستثمار الاقتصادي في مدينة بلنسية ذلك إن الكثير من أولئك المهاجرون من أصحاب الثروات وهم في الغالب من أصحاب الثروات وهم في الغالب من أبناء الطبقة الأرستقراطية في المجتمع الأندلسي الذين حملوا معهم أموالهم وقدراتهم في مجالات اقتصادية شتى فعمل هؤلاء على شراء الأراضي الزراعية، واستغلال أموالهم في مجالي الصناعة والتجارة .

فالبلنسيون الذي أرهقهم الحصار الذي استمر أكثر من عشرين شهرا إضطروا إلى أكل القطط والفئران وجثث موتاهم، كما اضطرهم الجوع إلى مغادرة المدينة، فابن الجفاف لم يكن الوحيد الذي أحرق حيا على مرأى من زوجته وبناته والناس أجمعين. كل هذه المآسي من حرق البشر والمساجد والقصور، ومشاهد الدمار التي خلفها الأعداء بعد انسحابهم أثارت مشاعر[1] .

ثانيا: نماذج شعرية من رثاء بلنسية الأندلسية

[1] فدوى عبد الرحيم قاسم، رثاء الأندلس في عصر الملوك والطوائف، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، قسم اللغة العربية، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، آيار، 2002م، ص-ص109-110 .

يبدو أن أهل بلنسية كانوا على شيء من الإهمال والغفلة، وكانوا جاهلين بشؤون الحرب مقبلين على الملذات والأكل والشراب، وعاثوا فيها الفساد وشوهوا نضرتها، بكاها شاعرها ابنها وابن خفاجة يقول:

عاثت بساحتك العدى يادار ومحا محاسنك البلى والنار
فإذا تردد في جنابك ناظر طال إعتبار فيك وإستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الأقدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتها لا أنت أنت ولا الديار ديار[1]

ولد سقوط مدينة بلنسية مسقط رأس الشاعر في يد النصارى شعورا حاد بالأسى والحزن فصور ماح لبها من خراب وتدمير، وأبدى إحساسا عميقا بالخطر الذي يمثله العدوان الصليبي على المدن الأندلسية الأخرى .

ومما رثاها أيضا أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن خلصة البلنسي:

وروضة زرتها للأنس مبتغيا فأوحشتني لذكرى سادة هلكوا
تغيرت بعدهم حزنا، وحق لها مكان نوارها أن ينبت الحسك
لو أنها نطقت قالت لفقيدهم: بأن الخليط ولم يأوو لمن تركوا

تسري في هذه الأبيات أحاسيس الشاعر والتفجع على ما آل إليه حال مدينته وما لحق بأهلها من مصائب، فالنصارى قد عاثوا في محاسنها فسادا، وبدلوا مظاهر الحياة فيها إلى خراب ودمار.

وفي بلنسية ، يقول أبو عبد الله بن عياش:

بلنسية بيني عن القلب سلوة فإنك روض لا أحن لزهرك
وكيف يحب المرء دارا تقسمت على صارمي جوع وفتنة مشرك

[1] مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت ،1973م، ص512 .

[2] أبو عبد الله بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري ، روض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1988م، ص62 .

وانتقض من هذا القول أبو الحسن بن حريق فأجاب:

بلنسية نهاية كل حسن حديث صح في شرق وغرب
فإن قالوا محل غلاء سعر ومسقط ديمتى طعن وضرب
فقل هي جنة حفت رباها بمكر وهين من جوع وحرب[1]

أما الشاعر أبو الحسن ابن الحريق، فقد دعا فيه إلى البقاء في المدينة بالرغم مما فيها من معاناة وفتنة .

ويعتبر أبو المطرف بن عميرة أحد الشعراء الذين أحدثت مأساة سقوط بلنسية في نفوسهم أثرا عميقا، فبكاها شعرا ونثرا، وذرف عليها دموعا غزيرة، وقد صور بعض ما أصابه من ألام وأحزان في رسالة نثرية كتبها إلى أحد أصحابه حين حل الرزء ببلنسية ومما جاء في قوله: « **أحقا أنه دكت الأرض، ونزف المعين والبرض وصوح روض المنى وصرح الخطب وما كنى؟ أين لي كيف فقدت رجاحة الأحلام وعقدت مناحة الإسلام، وجاء اليوم العسر، وأوقدت نار الحزن فلا تزال تستعر؟ حلم ما نرى؟ بل ما رأى ذا حالم، طوفان يقال عنده لا عاصم...من ينصفنا من الزمن الظالم ؟ الله بما يلقى الفؤاد عالم** »[2].

وكذلك رثى ابن عميرة المخزومي مدينة بلنسية نراه في إحدى قصائده يبكي بلنسية بكاء حارا، ويذرف عليها الدمع مدرارا ويصور ما أصاب الناس بعد ضياع بلنسية إذا استعرت قلوبهم بنار الحزن واضطرمت أحشاؤهم بحرق الأسى، وطما بحر الأشجان وأنحى عليهم الزمان بخطوبه الفادحة يقول أبو المطرف:

ما بال دمعك لا ينى مدراره أم لقبلك لا يقر قراره
أللوعة بين الضلوع لظاعن سارت ركائبه وشطت داره

[1] الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص70 .

[2] فوزي عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ص189 .

أم للشـــباب تقاذفـــت أوطانـــه بعد الدنو وأخلفت أوطاره
أم للزمـان أتـى بخطـاب فـادح من مثل حادثة خلت أعصاره
بحـر مـن الأشـجان عـب عبابـه وارتج مابين الحشى زخاره
فـي كـل قلـب منـه وجـد عنـده اسف طويل ليس تخبو ناره[1]

وينتقل أبو المطرف بعد هذا التمهيد المؤثر نقله أخرى، فيصف أحوال بلنسية بعد أن أصبحت مثوى للكفار يضربون بكفرهم في أنحائها ويمزقون أثارها ويقابل بين هذه الصورة الحزينة وبين صورة بلنسية حين كانت جنة للحسن تجري من تحتها الأنهار، وحين كانت أوقاتها تتألق بالنعيم وأرجاؤها تتعطر بنفحات النسيم، ويصفها حين كان ليلها مشرقا بالهداية،ثم أصبح نهارها مظلما بالظلال .

وهذه مقارنة بين الماضي والحاضر، أو بين الجمال والقبح تكاد تنتظم جميع مراثيهم يقول أبو المطرف:

أمـــا بلنســـية فمثـــوى كـــافر جفـت بـــه مـــن عقرهـا كفـاره
زرع مـــن المكروحـــل حصـــاده بـين العـدو غـداة لـج حصـاره
وعزيمـة للشرك جعجـع بالهـدى أنصـــارها إذ خانـــه أنصـــاره
قل كيف تثبت بعد تمزيق العدا أثـــاره أو كيـــف يـــدرك ثـــاره
مـا كـان ذاك المصـر إلا جنـة للحسـن تجـري تحتهـا أنهـاره
طابـــت بطيـــب بهـــاره أصـــاله وتعطـــرت بنســـيمه أســـحاره
وتألقـــت أوقاتـــه وتفيحـــت أرجاؤهـــا وتفتحـــت أنـــواره
قـد كـان يشـرق بالهدايـة ليلـه فـالآن أظلـم بالضـلال نهـاره
ودجـا بـه ليـل الخطـوب فصبحه أعيـا علـى أبصـارنا أبصـاره[2]

[1] فوزي عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص183 .

[2] فوزي عيسى، مرجع نفسه، ص184 .

فالأبيات الأولى تصور إنسانا يعيش " في بحر من الأحزان " مضطربا، كثير البكاء، شديد الوجد والصبابة، يبحث عن الخلاص من هذه الحالة إلا أنه لا يعرف لها علة أو سببا فجاءت رثائيته تحمل أسلوب الاستفهام مخاطبا دمعه الذي صار مدرارا، وقلبه الذي لا ينفك خفاقا ولوعته التي استقرت بين جنبيه على من ظغن وتركها تقاسي مرارة البعد، وألم الفراق، ثم تساءل عن الأوطان التي فقدت ودمرت واستبيحت واستحلت وتقاذفت وطارت ويبين أنه بحر من الأحزان .

ثم يبين الشاعر انتقال بلنسية من الإسلام إلى الكفر، وفي هذا إشارة الى أن الأعداء حولوا المدينة وغيروا ملامحها الإسلامية ولا شك أن قضية التحول من الإيمان إلى الكفر تبرز بوضوح في شعر رثاء المدن الأندلسية .

وفي قصيدة أخرى يمزج أبو المطرف بين الرثاء والحنين، فيتشوق إلى بلنسية التي أبعدته عنها صروف الليالي وحكم الزمان بأن لا يعود إليها مرة أخرى ويصف ما بقلبه من لوعة فراقها وما ثوى بأضلاعه من حرقة لما حل بها من أرزاء، ويشير إلى فكرة الذنب التي سبق أن أشار إليها ابن هارون في رثاء اشبيلية والتي أخرجتهم من جنة الخلد.

يقول أبو المطرف:

ألا أيهـــا القلـــب المصـــرح بالوجـــد ... أمـا لـك مـن بـادي الصـبابة مـن بـد

وهـــل مـــن ســـلو يرتجـــى لمتـــيم ... لـــه لوعـــة الصـــادي وروعـــة ذي

يحـــن إلـــى نجـــد وهيهـــات حرمـــت ... صـــروف الليـــالي أن يعـــود إلـــى

فيـــا جبـــل الريـــان لا ري بعـــد مـــا ... عـدت غيـر الأيـام عـن ذلـك الـورد

أمـــن بعـــد رزء فـــي بلنســـية ثـــوى ... بأحنائنـــا كالنـــار مضـــمرة الوقـــد

يرجـــي أنـــاس جنـــة مـــن مصـــائب ... تطـــاعن فـــيهم بالمثقفـــة الملـــد

وهـــل أنـــب الأنبـــاء ذنـــب أبـــيهم فصـــاروا إلـــى الإخـــراج مـــن جنـــة

ظاهرة الحزن واضحة وجلية، فالشاعر لا يملك إلا هذا القلب المصرح بالوجد، والمشتاق إلى نجد، ولكنه لا يستطيع العودة إليها فقد حرمته صروف الليالي أن يعود إليها ليست هي وحدها بل جميع الأماكن الجميلة الأخرى الموجودة في بلنسية فهو لم يترك مكانا إلا ذكره وحن إليه وبكى عليه.

نجد كذلك أبو البقاء صالح بن شريف الرندي قال:

فاســأل بلنســية مــا شــأن مرســية وأيـــن شـــاطبة أم أيـــن جيـــان
وأيـــن قرطبـــة دار العلـــوم، فكـــم مـن عـالم قـد سـما فيهـا لـه شـأن
وأيـن حمـص ومـا تحويـه مـن نـزه ونهـــر العـــذب فيـــاض ومـــلأن
قواعـــد كـــن أركـــان الـــبلاد فمـــا عســـى البقـــاء إذا لـــم تبـــق أركـــان
تبكـي الحنيفـة البيضـاء مـن أسـف كمـــا بكـــى لفـــراق الإلـــف هيمـــان
علـــى ديـــار مـــن الاســـلام خاليـــة قـــد أقفـــرت ولهـــا بـــالكفر عمـــران
حيـث المسـاجد قـد صـارت كنـائس فـــبهن إلا نـــواقيس وصـــلبان
حتـى المحاريـب تبكـي وهـي جامـدة حتـــى المنـــابر ترثـــي وهـــي عيـــدات
يـا غـافلا ولـه فـي الـدهر موعظـة إن كنـت فـي سـنة فالـدهر يقظـان
وماشـــيا مرحـــا يلهيـــه وطنـــه أبعـد حمـص تفـر المـرء أوطـان[2]

بلنسية ومرسية وشاطبة هي أعلام عجمية، يقصد بالبيت اسأل بلنسية عن حال مرسية التي كم فيها من عالم قد سمت وارتفعت حاله، تلك العواصم التي كانت منارات للعلم ومعاقل الإسلام سقطت في أيدي النصارى، وقد كانت هذه الحواضر ركائز بلاد الأندلس وأركانها فماذا يبقى من الأندلس بعد سقوط أركانها .

[1] فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص188 .

[2] أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس، دار صادر، بيروت، ط1، 1997م، ج3 ، ص544 .

تبكي الحنيفة البيضاء من أسف هنا انتقل الى تصوير حال الاسلام بعد سقوط ، حيث اصبح حزينا يبكي المسلمون من شدة الحزن كما يبكي الحبيب لفراق حبيبه يبكون على ديار التي كانت للمسلمين وأصبحت الآن خالية منهم مملوءة بالكفار حيث اصبحت مساجدها كنائس تضرب فيها النواقيس وتعبد فيها الصلبان .

حتى المحاريب تبكي وهي حجارة وحتى المنابر ترثي وهي أخشاب، من خلال هذه الأبيات نفهم أن حاضر المسلمين اليوم كما فيهم الغابر يوم حلت ببلاد الأندلس مصائب الهزيمة والسقوط وأنهم الآن يضيعون أوطانهم ويضعفون بتفرقهم وتمزقهم كما ضاعت أوطانهم الإسلامية في الأندلس.

وأن على المسلمين لكي ينتصروا على عدوهم أن يتحدوا ويعتصموا بحبل الله جميعا ويحققوا الوحدة والأخوة الإسلامية فيعظم أمرهم ويحافظوا بذلك على بلادهم وأوطانهم .

يقول ابن الآبار:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى من منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وحاشا مما تعانيه حشا شتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا

يا للجزيرة أضحى أهلها جرزا ... للحادثات وأمسى جدها تعسا

في كل شارقة إلمام بارقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا

وكل غاربة إخجال شائبة ... تثني الأمان جذارا والسرور أسى

تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... إلا عقائلها المحجوبة الأنسا

وفي بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفس

مدائن حلها الإشراك مبتسما ... جذلان، وارتحل الإيمان مبتئسا

وصيرتها العوادي والعائثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما

فمن دساكر كانت دونها حرسا ... ومن كنائس كانت قبلها كنسا

يا للمساجد عادت للعدا بيعا ... وللنداء غدا أثنائها جرسا

لهفي عليها على استرجاع فائتها مدارسا للمثاني أصبحت درسا
وأربعا نمنمت أيدي الربيع لها ما شئت من خلع موشة وكسا
كانت حدائق للأحداق مونقة فصوح النصر من أدواحها وعسا
وحال ماحولها من منظر عجب يستجلس الركبا أو يستركب الجلسا
سرعان ما عاث جيش الكفر وأحربا عبث الدبى في مغانيها التي كبسا

وقال أيضا في ندب بلنسية:

بلنسية يا عذبة الماء والجنى سقيت إن أشقيت صوب الرواجس
أحب وأقلى منك حالا وماضيا بموحشية ألوت بعهد الأوانس
ومن عجب أن الديار أواهل وأندبها ندب الطلول الدواريس[1]

يدعو الشاعر الى مساعدة المسلمين بالأندلس ومحاربة الروم الذين حاصروا البلاد وقد لقب خيل امير تونس بخيل الله والقصد في ذلك رابطة الدين.ويخبر أمير تونس بحال المسلمين وأنهم أصبحوا يقتلون بسيوف النصارى المعتدين ومن لعبارات الدالة من الأبيات الشعرية (الحادثات، المصائب، تعسا، السقوط، جدها) .

أهم المدن في الأندلس قرطبة بلنسية وهي مدينة الشاعر التي ولد فيها يوضح فيها الألام والمآسي ، ويصف حالة الشرك وهو يبتسم للأندلس وحالة الإيمان كيف رحل مبتئسا ويصف حالة الأندلس بعد المصائب التي حلت عليها بأنه يصعب النظر فيها من بعد ما حولت المساجد كنائس و أصبح الأذان للصلاة أجراس لنواقيس النصارى ويقول أن الحزن له كان أضعاف ما فرح في حياته .

طغت في قصيدة ابن الآبار المفردات الدالة على الحزن منها: (تعانيه، ذاقت اللوى، تعسا، ينزف النفس، مبتئسا، أندبها ندب الطلول، ماضيا بموحشية) .

ونجد الشاعر يتمنى في قوله:

[1] أبي عبد الله محمد بن الآبار القضاعي البلنسي، ديوان ابن الآبار، تح : عبد السلام هراس ،وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، الرباط، ط1، 1999م، ص-ص 412-413 .

لهفـي عليهـا علـى اسـترجاع مدارسـا للمثـاني أصـبحت درسـا

تبني من خلال الألفاظ الدالة على الحزن على أن نفسية الشاعر حزينة ومتأسفة على ما وقع بالمدينة .

ولم يزل أهل الأندلس بعد ظهور النصارى دمرهم الله تعالى على كثير منها يستنهضون عزائم الملوك لأخذ الثأر، بالنظم والنثار، فلم ينفعهم ذلك حتى اتسع الخرق، ومن القصائد الموجهة في ذلك قول بعضهم لما أخذت بلنسية يخاطب صاحب افريقية أبا زكريا ابن عبد الله الواحد بن أبي حفص:

نادتــك أنــدلس فلــب نــدائها واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرخت بـدعوتك العليـة فاحبهـا من عاطفاتك مـا يقـي حوباءها
واشـدد بحبلـك جرد خيلـك أزرهـا تــردد علــى أعقابهــا أرزاءهــا
هــي دارك القصـوى أوت لإيالــة ضـمنت لهـا مـع نصرها إيواءها
وبهـا عبيـدك لابقـاء لهـم سـوى سبل الضراعة يسلكون سواءها
خلعـت قلـوبهم هنــاك عزاءهــا لمــا رأت أبصــارهم مــا ســاءها
دفعوا الأبكـار الخطـوب وعونهـا فهـم الغـداة يصـابرون عناءهـا
وتنكـرت لهـم الليـالي فاقتضـت ســراءها وقضــتهم ضــراءها
تلــك الجزيــرة لا بقــاء لهــا إذا لم يضمن الفتح القريب بقاءها
رش أيها المولى الرحيم جناحها وأعقـد بأرشـية النجـاة رشـاءها
أشفى على طرف الحياة ذماؤها فاستبق للـدين الحنيـف ذماءهـا
حاشاك أن تفنـى حشاشتها وقد قصرت عليك نداءها ورجاءها
طافـت بطائفـة الهـدى آمالهـا ترجـو بيحـي المرتضـى إحياءهـا
واستشــرفت أمصــارها لإمــارة عقدت لنصر المستضام لواءها
يــا حســرتي لعقائــل معقولــة سئم الهدى نحو الضلال
إيــه بلنســية وفــي ذكــراك مــا يمـري شؤون دماءهـا لا ماءهـا

كيف السبيل إلى احتلال معاهد شب الأعاجم دونها هيجاءها[1]

وعليه فإن بلنسية وما لحقها من محن ودمار وما حل بها من ضياع قد نالت الكثير من اهتمام الشعراء والحزن والبكاء عليها وعلى نضرتها والتحمس لرثائها .

وقد أجاد شاعر بلنسية ابن غالب أبو عبد الله الرصافي في وصف مدينته قائلا:

بلنسية تلك الزبرجدة التي تستيل عليها كل لؤلؤة نهرا
كأن عروسا أبدع الله حسنها فصير من شرخ الشباب لها عمرا
تؤبد فيها شعشعانية الضحى إذا ضاحك الشمس البحيرة والنهرا
تزاحم أنفاس الرياح بزهرها نجوما فلا شيطان يقربها ذعرا
هي الدرة البيضاء من حيث جئتها أضاءت ، ومن الدر أن يشيه البدرا[2]

ويدل هذا الوصف على جمال بلنسية وغناها .

[1] المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،ج5 ، ص235 .

[2] محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس – عصر المرابطين والموحدين –، مكتبة خانجي، القاهرة، 1997م، ج2، ص188 .

الفصل الثاني:

رثاء مدينة قرطبة

أولا: التعريف يالمدينة قرطبة

ثانيا: نماذج شعرية من رثاء مدينة قرطبة الأندلسية

ثالثا: التحليل الأسلوبي للقصائد

أولا: التعريف بمدينة قرطبة

يحدثنا المؤرخون أن الأندلسيين لم يعرفوا قيمة الاستقرار، ولم يذوقوا أمن الوحدة أبدا فمنه قرطبة مدينة عظيمة بالأندلس بملوكها وفضلائها ونبلائها تعتبر قرطبة عاصمة الخلافة الأندلسية آنذاك، تقع على سفح جبل في الوادي قرب جبل سومرين تبعد عن مدينة مدريد أربعة كيلو مترات ويخترق أراضيها من الشرق إلى الغرب نهر الوادي الكبير، يفصل مجراه بين المناطق الجبلية الواقعة إلى الشمال وبين الجنوب.وتعتبر قرطبة مدينة صناعية بها الفحم والنحاس و أهم صادراتها الفواكه والزيت،و تعد اليوم قرطبة من أكبر المدن الإسبانية .

تمتاز قرطبة بشكل مربع وبشوارعها العريضة وما تزال شوارعها تحمل أسماء قادة وعلماء عرب (المنصور، ابن رشد، ابن حيان، ابن حزم، ابن ميمون) .

وهي مدينة المفكر الفيلسوف الشهير عباس بن فرناس صاحب الفكرة الأولى لاختراع أداة الطيران.فمدينة قرطبة تكثر فيها الآثار العربية وأشهرها جامعها الكبير ويعتبر من أروع المعالم الأثرية العربية لدقة تصميمه وجمالية بنائه .

تمتاز مدينة قرطبة ببقايا أسوار يرجع إلى العهود الرومانية والإسلامية والمسيحية وبقيت منه لحد الآن بوابات وملامح رئيسة للمدينة هي على نوعين شعبي وأرستقراطي، ويضم المتحف الأثري في قرطبة ويعتبر أضخم متاحف إسبانيا على جميع معالم العهود التي مرت بها قرطبة منذ عصر ما قبل التاريخ .

وصفها الجغرافيون أنها أعظم مدن الأندلس ويقول الحميري: « **في ذاتها مدن خمس يتلو بعضها بعضا وبين مدينة ومدينة سور حاجز، وفي كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق...وسائر الصناعات** »[1].

[1] الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص456 .

تحتل مكانة مميزة بالنسبة للمدن الأندلسية، فهي عاصمة الدولة الإسلامية في الأندلس منذ تأسيسها حتى التفكك على يد ملوك الطوائف، يحمل إسم قرطبة معنى الشموخ والإرتفاع، حيث احتلت قرطبة مساحة واسعة، فكثرت أرباضها وتعددت أبوابها ومساجدها وحماماتها ومنتزهاتها .

تألقت قرطبة وشع فيها نور العلم والحضارة في العهد الأموي حيث كثر بها العلم والعلماء واستقر بها النبلاء والفضلاء، وصارت دار الهجرة للعلم، ومكان رحلة لأولي الفهم، « **وقد جمع من الكتب فيها ما لا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة، حتى قيل أنها أربعمائة ألف مجلد" لعلماء وأدباء وشعراء سطع نجمهم بها ومنهم ابن عبد ربه " صاحب العقد الفريد"، والقسطلي" ابن دراج الشاعر"، وابن زيدون وصاحبته" ولادة "، وعالم النحو " ابن القوطية" »**[1] .

بدأ تاريخ قرطبة ودورها الهام بتولي الأمير عبد الرحمن الداخل[2]، شؤون الأندلس وفي هذه الفترة برزت قرطبة إلى قمة الوجود لتشارك عواصم العالم آنذاك وصارت مستقر مركز الدول العربية الأندلسية. وشهدت قرطبة عدة ثورات وفتن كثيرة أخمدت أنفاس كل دعوة لها صبغة غير الصبغة الأموية .

أما بالنسبة إلى العلوم العربية فقد لاقت رواجا كبيرا في قرطبة كعلوم القرآن والفقه واللغة والأدب .

برزت قرطبة بأدبائها، وشعرائها، وعلمائها، حتى ضاهت بغداد، دمشق، والقاهرة والقيروان ردحا من الزمن حتى بلغت شهرتها عند أهل أوربا مما أطلقوا عليها بجوهرة العالم .

---

[1] عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ط1، 1997 م ، ص، ص215،210 .

[2] محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال – دراسة تاريخية أثرية –، مكتبة الخانجي، القاهرة ط2، 1997م، ص25 .

ويقال أيضا أنها مدينة قريبة من بغداد وفي جوانبها سور من الحجارة فيه بابان يؤديان إلى طريق الوادي الذي توجد فيه أسواق وأهل المدينة[1]، ومع مرور الوقت خربت البلاد فحزن من حالها بعض الشعراء، وانقضت معاهد صبوتهم فيها، وانطفأت فيها شمس بني أمية والنجوم العامرية، فندبوها بمراثيهم .

ثانيا: نماذج شعرية من رثاء قرطبة الاندلسية

ومن هؤلاء الشعراء عاشق قرطبة ابن شهيد الذي رثاها برائية طويلة ومنها قوله:

ما في الطلول من الأحبة مخبر فمن الذي عن حالها نستخبر؟
لا تسألن سوى الفراق فإنه ينبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا
جار الزمان عليهم فتفرقوا في كل ناحية وباد الأكثر
جرت الخطوب على محل ديارهم وعليهم فتغيرت وتغيروا
فدع الزمان يصوغ في عرصاتهم نورا تكاد له القلوب تنور
فلمثل قرطبة يقل بكاء من يبكي بعين دمعها متفجر
في كل ناحية فريق منهم متفطر لفراقها متحير

لا شك أننا نلاحظ كيف سار ابن شهيد على درب المشارقة فوقف على الأطلال وهناك أراء تربط بين الرثاء والوقوف على الأطلال .

واللافت النظر في هذه القصيدة هو الحيرة والتساؤل اللذان بدأ بهما ابن شهيد مرثاته، ويقف الشاعر وقفة حزينة في طلول أحبته التي أصبحت خاوية لا يجد فيها من يسأله عما حل بها و بأهلها ،وهو هنا إنما يساءل نفسه لأنه على علم بما حصل لبلده – قرطبة– لذلك نراه يراجع إلى نفسه ليستيقظ ولم يبق سوى الفراق والحسرة على تلك الديار التي أصبحت بعيدة المنال عن أهلها ولقد خيم البؤس والشقاء على أهلها وتشتت شملهم وتفرقوا وقتل منهم الكثير على أيدي القشتالين، وحلت المصائب على تلك الديار ولم يبق

[1] توفيق محمد علي الحجاج، صفحات من تاريخ المدن الأندلسية، دار الضياء، عمان، ط1، 2005م، ص،ص 25،28.

إلا الآثار التي تدل على عظمتهم ولكنها تغيرت بفقدهم وتغيروا ببعدهم عنها. ومهما انهمرت الدموع على ما حل بقرطبة فإنها تبقى قليلة مقارنة بالنظر إلى شدة المصائب التي حلت بها والحياة فيها كانت جميلة مليئة بالألفة والمحبة بين أهلها وطبيعتها الساحرة من خلال أشجارها وأزهارها العطرة، فقد عاش قومها في ترف ورغد العيش وقد نعموا بكل ما فيها من حضارة شامخة وطبيعة خلابة. وهناك ألفاظ تدل على ذلك: " الفراق، والجور، والخطوب، والتغيير، والبكاء والتفطر، والحيرة، كل هذه الألفاظ التي شكلت حلقة حزن وألم، وجمعها ابن شهيد في الأبيات الأولى ولسان حاله يقول: انظروا إلى الدمار والخراب الذي خلفته الفتنة البربرية، ثم ينتقل إلى وصف قرطبة عند ما كان العز والرخاء يرفرفان عليها قائلا:

فلمثل قرطبة يقل بكاء من ... يبكي بعين دمعها متفجر
دار أقال الله عثرى أهلها ... فتبربروا وتغربوا وتمصروا
في كل ناحية فريق منهم ... متفطر لفراقها متحير
عهدي بها والشمل فيها جامع ... من أهلها والعيش فيها أخضر
ورياح زهرتها تلوح عليهم ... بروائح، يفتر منها العنبر
والدار قد ضرب الكمال رواقه ... فيها، وباع النقص فيها يقصر
والقصر قصر بني أمية وافر ... من كل أمر والخلافة أوفر
والزاهرية بالمراكب تزهر ... والعامرية بالكواكب تعمر
والجامع الأعلى يغص بكل من ... يتلو ويسمع ما يشاء وينظر
ومسالك الأسواق تشهد أنها ... لا يستقل بسالكيها المحشر[1].

يرجع الشاعر بذاكرته إلى الماضي القريب حيث كان شمل الأحباب بقرطبة مجتمعا وعيشهم بها رغيدا يفتخرون بها على سائر البلاد ، فهي درة جبين الحضارة تزهو بعمرانها

[1] ابن شهيد الأندلسي، ديوان ابن شهيد الأندلسي، تح: زكي يعقوب، مراجعة: محمود علي مكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1900 م، ص109 .

ومنشأتها العامة والخاصة وبشوارعها الواسعة وحدائقها التي تتمايل مزهرة شذية ولا عجب أن تكون قرطبة كذلك فهي قصبة الملك ودار الخلافة في وسطها يقع قصر الخلفاء الأمويين الضخم وبقربها تقوم مدينة الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر وبالغ في تحسينها لتنافس قرطبة نفسها وفي هذه المدينة أطلق ابن شهيد لسانه في المديح، ولا ينسى في هذا المجال جامع قرطبة الكبير الذي تتابع عليه الخلفاء بالزيادة والتحسين حتى غدا آية في الروعة ومنار للعلم والعبادة.

يقول ابن عذارى: « **كانت قرطبة في زمان الداخل إلى الأندلس قد تسيء بها بغداد زمان في زمان الرشيد، وعظم بها ملكهم فاشتد أمرهم وضخم حالهم، وأعظم ما كانت في زمان الناصر ثم في زمان الحكم واتصل ذلك لها إلى أخر المنصور بن أبي عامر فتناهى بها كل فضل وكهل، وذلك للأدبار الذي يكون بعقب الإقبال، والنقص الذي يوافى بعد الكمال فما من شيء كمل إلا ودنا نقصه لا محاله** ». وبقدر ما كان الحسن والازدهار أصبح الخراب والتدمير وانقلب كل شيء فيها إلى نقيضه:

يـا جنـة عصـفت بهـا وبأهلهـا ريـح النـوى فتـدمرت وتـدمروا
أسـى عليـك مـن الممـات وحـق إذ لـم تـزل بـك فـي حياتـك تفخـر
كانـت عراصـك للمـيمم مكـة يـأوي إليهـا الخـائفون فينصـروا
يـا منـزلا نزلـت بـه وبأهلـه طيـر النـوى فتغيـروا وتنكـروا[1]

ويصف ابن شهيد الحياة التي كانت عليها قرطبة قبل الفتنة،و المفارقة الحاصلة بين الحالتين التين عاشتهما المدينة بالحياة والموت فبينما كانت موضع الفخر في حال حياتها إذ هي اليوم ميتة تستحق البكاء والأسى .

[1] شاهد عوض الكفاوين، الشعر العربي في رثاء الدول والأمصار حتى نهاية سقوط الأندلس، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، كلية اللغة العربية، فرع الأدب، 1984م، ص195 .

ثم يعود إلى تأسفه وحزنه على أيامه الخوالي بها حين كان الأمر مجتمعا على أمير واحد حازم يخضع له الجميع، ثم يمتد أسفه ليشمل أصنافا من الناس كالجند الحماة والعلماء والأدباء والحكماء يقول:

أيـام كـان الأمـر فيهـا واحـدا لأميرهـا وأميـر مـن يتأسـر
أيـام كانـت كـف كـل سـلامة تسـمو إليهـا بالسـلام وتبـدر
حزنـي علـى سـرواتها ورواتهـا وثقاتهـا وحماتهـا يتكـرر
نفـس علـى آلائهـا وصـفائها وبهائهـا وسـنائها تتحسـر
كبـدي علـى علمائها،حكمائهـا أدبائهـا، ظرفائهـا تتفطـر

لقد كانت قرطبة كعبة العلماء بأصنافهم ، الشعراء،و الأدباء، وكان ابن شهيد من جملتهم، كما كانت تزخر بالمدارس والجامعات والمكتبات. حتى انه كان يحتج بعمل أهلها في الأحكام يقول المقري: « **واعلم أنه لعظم أمر قرطبة كان عملها حجة بالمغرب، حتى إنهم يقولون في الأحكام هذا ما جرى به عمل قرطبة** »[1].

وهناك أيضا عدة مقطوعات في رثاء قرطبة يسلك بعضها سبيل الوعظ وإرشاد الناس إلى الصراط القويم الذي أصابتهم المحن بسبب ابتعادهم عنه، وزجرهم عن الفن الذي أعمى بصائرهم فلم يضعوا الأمور في نصابها .

ورثاها ابن عصفور الحضرمي في محاولة لتنبيه الناس بالواقع الماثل أمامهم وجعل خرابها مسببا عن تهاون أهلها وتقصيرهم في تدمير أمرهم فقال:

أضـعتم الحـزم فـي تـدبير أمـركم ستعلمون معا عقبى البوار غدا
فلـو رأيـتم بعـين الفكـر حـالكم بكيـتم بـدم أن دمـتم بـددا
لكن سبل العمى أعمت بصائركم فألبسـتكم ثيابـا للبلـى جـددا
يـا أمـة هتكـت مسـتور سـوءتها مـا كـل مـن ذل أعطـى بالصـغار
فـي سـورة الحشـر آيـات مفصـلة فـي شـانكم أنزلـت لـم تصـدكم

[1] المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ص556 .

نعم وفي الكهف في العشرين تقض عليكم بأن لا تفلحوا أبدا
فاستثمروا سوء عقباكم فقد جميعكم محنة لا تنقض أبدا[1]

إن هذه الأبيات قد عرف سبب الهلاك الذي أصاب الناس في هذه الفتنة وهو الابتعاد عن الجدية والحزم في تصريف الأمور حتى غدت حالتهم تستوجب البكاء دما، بعد التشتت والتفرق وهو يضير أيضا إلى أمر هام زاد الأمة ذلا على ذلها وكشف ضعفها وهوانها وهو الاستنجاد بأعداء الدين النصارى على المسلمين وذلك في قوله: « **ما كل من ذل أعطى بالصغار يدا** »، ومن الآيات قوله هذا وخاصة قوله تعالى عن الكفار:﴿ **إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً** ﴾[2].

إن هذه المقطوعة وإن كنا نعدها من شعر الوعظ والزجر لا من شعر الرثاء الخالي لخلوها من وصف ما حل بقرطبة من الدمار تفصيلا إلا أنها قد أدت غرضا بإيجابية في تنبيه الناس الغافلين، وإيقافهم على الواقع الماثل أمامهم فقد تميز صاحبها بصدق عاطفته.

ولبعضهم أيضا مقطوعة قصيرة في رثاء عاصمة الخلافة (قرطبة) وهو يرجع ما دهاها إلى العين والحسد وهذا النوع من القول يتردد كثيرا في شعر الرثاء، كما لاحظناه في رثاء بغداد أيام فتنة الأميين والمأمون يقول:

أبك على قرطبة الزين فقد دهتها نظرة العين
أنظرها الدهر بأسلافه ثم تقاضى جملة الدين
كانت على الغاية من حسنها وعيشها المستعذب اللين
فانعكس الأمر فما أن ترى بها سرورا بين إثنين

[1] أبي عبد الله محمد بن محمد بن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب، تح ومراجعة: ج.س كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة ، بيروت ، 1983 م ، ج3 ، ص110 .

[2] سورة الكهف، الآية 20 .

فاغـد وودعهـا وسـر سـالما إن كنـت أزمعـت علـى البـين[1]

إن الشاعر كما يبدو ذا نزعة تشاؤمية انهزامية قادته إلى البكاء والحزن على مدينته المدمرة دون أن يرفع صوته محذرا قومه أسباب الفتن والانقياد للحكام الخونة الذي هم رأس الداء وسبب البلاء. ولعل الخوف من البطش به هو الذي دفعه إلى أن يجعل خراب قرطبة ، وانعكاس حالها من الحسن والسرور إلى البؤس والشقاء هو نظرة العين الحاسدة فلا عليهم إلا أن يفارقوها مودعين إلى غير لقاء . ويقول ابن القبرى:

يـا ليـت شـعري والأيـام تجمعنـا ونأخـذ البـين مغلوبـا فنصـفعه
فـي جنـة الأرض أعنـي ارض فكـل شـيء بـديع فهـي تجمعـه
اسـتودع الله أهليهـا فـإنهم كالمسك قد ملأ الدنيا تضوعه[2]

فهذه الأبيات تعبير عن أشواق قائلها إلى أيامه الماضية بقرطبة حين كان الشمل ملتئما والفراق منهزما وكل ما ألذ وطاب موفورا فيها .

فلما حدثت فتنة قرطبة هجم البربر على هذه المدينة ومعهم النصارى ونهبوا كل ما فيها ودمروها بشناعة فلما وقف السميسر الإلبيري بها أخذ يناجيها باكيا ومستخرجا للعبرة مما آل إليه حالها يقول:

وقفـت بـالزهراء مسـتعبرا معتبـرا أنـدب أشـتاتا
فقلـت: يـا زهـرا ألا فـارجعي قالـت وهـل يرجـع مـن ماتـا؟
فلـم أزل أبكـي وأبكـي بهـا هيهـات يفنـى الـدمع هيهاتـا
كـأنما أثـار مـن قضـى نـوادب ينـدبنا أمواتـا [3]

[1] إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة – ، دار الثقافة ، بيروت ، 1960 م ، ص140 .

[2] ابن عذاري ، البيان المغرب في أخبار الأندلس ، ص201 .

[3] السيد عبد العزيز بن سالم، في تاريخ وحضارة العرب في الأندلس، مؤسس شباب الجامعة، الإسكندرية، 1988م، ص45 .

ولما رأى السميسر الإلبيري الزاهرة ما حل بها من خراب ودمار فبكاها بأبيات جمع فيها عصارة آهاته ودموعه، صور الشاعر حزنه وحسرته وشوقه قوله أبكي أندب، دالا على سلوك الشاعر اتجاه المدينة. والبكاء الغزير الذي انتاب الشاعر عندما وقف على أطلال الزهراء إذ صور آثار الزهراء يندبن أمواتا وذلك في قوله: **« نوادب يندبن أمواتا»** وجدير أن نأخذ منه العبرة بأن مصير كل شيء في الأرض مهما كان عظيما إلى الفناء والزوال ولقد أحسن الشاعر في وقفته بأطلالها، ويضفى عليها فيه صفات الأحياء الذين يؤلون إلى الموت .

ورثاها ابن حزم الأندلسي ويبكيها نثرا عندما عاد إليها فوجدها مأوى للذئاب ومكامن للوحوش، قال: **« ...وقد أمحت رسومها، وقد طمست أعلامها وخفيت معاهدها وغيرها البلى، وصارت صحاري مجدبة بعد العمران، وفيا في موحشة بعد الأنس »**[1] يقول:

سلام على دار رحنا وغودرت ... خلاء من الآهلين موحشة قفرا
تراها كأن لم تغن بالأمس بلقعا ... ولا عمرت من أهلها قبلنا دهرا
فيا دار لم يقفرك منا اختيارنا ... ولو أننا نستطيع كنت لنا قبرا
ولكن أقدارا من الله أنفذت ... تدمرنا طوعا لما حل أو قهرا
ويا خير دار قد تركت حميدة ... سقتك الغوادي ما أجمل وما أمرا
ويا مجتلي تلك البساتين حفها ... رياض قوارير غدت بعدنا غبرا
ويا دهر بلغ ساكنيها تحيتي ... ولو سكنوا المروين أو جاوزوا
فصبرا لسطو الدهر فيهم وحكمه ... وإن كان طعم الصبر مستثقلا مرا
ويا دهرنا فيها متى أنت عائد ... فنحمد منك العود أن عدت والكرا
فيا رب يوم في دارها وليلة ... وصلنا هناك الشمس باللهو والبدرا
فواجسمي المضني ووا قلبي المغري ... وأنفسي الثكلو وأكبدي الحرى

[1] أبي محمد علي بن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، تح: حسن كامل الصيرفي، مكتبة معرفة، دمشق ، د ط ، د ت ، ص91 .

ويـا هم مـا أعدى ويـا شجو مـا أبـرا ويـا وجد مـا أشجى ويـا بـين مـا أقـرا
ويـا دهـر لا تبعـد ويـا عهـد لا تحـل ويـا دمـع لا تجمـد ويـا سـقم لا تبـرا
سـأندب ذاك العهـد مـا قامـت الخضـرا على النـاس سقفا واستقلت بنـا الغبرا

ثالثا: تحليل الاسلوبي لنماذج شعرية

أ-المستوى الصوتي

البنية الصوتية في الشعر تعد الركيزة الأساسية لفهم النص، والموسيقى هي أحد المقدمات المهمة في الشعر التي تجعل منها خطابا ذا خصائص تميزه عن فنون القول، ومنه تنقسم الموسيقى الشعرية إلى قسمين من خلالهما يتشكل إيقاع النص، وهما الموسيقى الخارجية المتمثلة في الوزن والقافية، والموسيقى الداخلية المتمثلة في جرس أصوات الكلمات، والحروف كالتجنيس والتصريع ومن خلالهما يمكن إستظهار الموسيقى.

1- الموسيقى الخارجية:

- الوزن: « هو الإيقاع الحاصل من التفعيلات الناتجة عن كتابة البيت الشعري كتابة عروضية أو هو الموسيقى الداخلية المتولدة عن الحركات والسكنات في البيت الشعري»[1].

قصيدة ابن شهيد الأندلسي بتقطيع بيتين من القصيدة يقول ابن شهيد:

مـا فـي الطلـول مـن الأحبـة مخبـر فمـن الـذي عـن حالهـا نسـتخبر
مَأْ فِطْلُوْلِ منَ لْاَ حِبْبة مُخْبِرُوْ فَمِن لْلذِيْ عَنْ حَالِهاْ نَسْتخبرُوْ
0//0/0/ 0//0/ 0/ 0//0 /// 0//0/// 0//0// /0///0/ 0/
مُتْفاعلن متفاعلن متفاعلن متفـاعلن متفـاعلن متفـاعلن
جـرت الخطـوب علـى محـل ديـارهم وعلـــيهم فتغيـــرت وتغيـــروا
جَـرَتِ لْخُطُـوبُ علَـى مَحَلْـلِ دِيـارِهِمْ وَعَلَيْهِمُـــوْ فَتَغَيْيَـــرت وتغيْيَـــرُوا

[1] إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991 م ، ص458 .

0//0/// 0//0/// 0//0/// 0//0// /0// 0// /0//0 ///

مُتَفَــــاعلن مُتَفَــــاعلن مُتَفَــــاعلن مُتَفَــــاعلن متفـــــاعلن متفـــــاعلن

من خلال تقطيع البيتين نلاحظ أن الشاعر استعمل البحر الكامل تاما غير مجزوء عروضه، وضربه صحيحان، إلا أنه طرأت عليه بعض التغييرات اقتصرت على زحاف الإضمار فلا وجود لأي علة .

– **القافية:** لقد أعطيت تعريفات عدة للقافية قول الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهي « **من أخر حرف في البيت إلا أول ساكن يليه من قبله، مع حركة الحرف الذي قبل الساكن**»[1]. ويراها الأخفش: « **أخر الكلمة في البيت أجمع** »[2].

ويعرفها إبراهيم أنيس: « **ليست القافية إلا عدة أصوات تتكرر في أواخر الأسطر أو الأبيات من القصيدة وتكررها هذا يكون جزء هاما من الموسيقى الشعرية، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الأذان في فترات زمنية منتظمة وبعد عدد معين من المقاطع ذات نظام خاص يسمى بالوزن**»[3]، ومن أمثلة ذلك لدينا: القافية جزء من الكلمة يقول ابن شهيد:

فـــي كـــل ناحيـــة فريـــق مـــنهم متفطـــــر لفراقهـــــا متحيـــــر

قافية هذا البيت هي : حييرو /0//0 قافية مطلقة متداركة

القافية المطلقة هي الأكثر استعمالا عند العرب لأنها تنتهي بحرف مد يمتد معه الصوت أكثر ويكون أوضح في السمع وأغلبها أفعال مضارعة مثل (نستخبر، تتخذر، تزهر، تنظر...) .

2– الموسيقى الداخلية:

---

[1] أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: عبد الحميد الهنداوي، المكتبة العربية، لبنان، ط1، 2001م، ج1، ص243 .

[2] عبد الرحمن تبرماسين ، العروض وإيقاع الشعر العربي ، دار النشر والتوزيع ، ط1 ، 2003 م ، ص35 .

[3] عبد الرحمن تبرماسين ، العروض وإيقاع الشعر العربي ، ص35 .

إذا كانت الموسيقى الخارجية تعنى بالوزن والقافية فإن الموسيقى الداخلية تعنى بدراسة الأصوات اللغوية وما يصاحبها من ظواهر صوتية .

-**التكرار**: من السمات الأسلوبية، ومن أبرز صور التناسق الصوتي، كما يعمل على التكرار على « **إثارة انتباه المتلقي وتكثيف إيقاع الموسيقى في النص الشعري** »[1].

- **تكرار الكلمة**: ومن الأسماء المكررة في القصيدة وذلك في الأبيات التالية:

يـا طيـبهم بقصـورها وخـذورها وبـــدورها بقصـــورها تتحـــذر

والقصـر قصـر بنـي أميـة وافـر مـن كـل أمـر والخلافـة أوفـر[2]

- **المحسنات البديعية:**

الطباق: من المحسنات المعنوية ويسمى المطابقة أو التطابق ومنه لدينا طباق إيجاب كقوله في البيت:

لا تسـألن سـوى الفـراق فإنـه ينبيك عنهم أنجدوا أم أغـوروا

طباق وظفه الشاعر لإظهار رحال قرطبة. في قوله:

والـــدار قـــد ضـــرب الكمـــال فيها وبـاع النقص فيها يقصر

فالطباق هنا واقع بين كلمتين الكمال والنقص طباق إيجاب بين إسمين معبر الشاعر عن النقص الذي لم تكن قرطبة تزخر به .

ب-المستوى الدلالي: تعتمد الأسلوبية من خلال هذا المستوى إلى دراسة الدلالة من خلال الكلمة المفردة أو التركيب.

- **دلالة الألفاظ** : الكلمة عنصر أساسي، لهذا فعلى الشاعر أن تكون ألفاظه منسجمة مع معانيها وتتناسب مع غرضه الشعري كما يجب على الشاعر أن يوفر بين ألفاظه جو من الألفة لتحمل أكبر قدر من المعاني. ونذكر بعض الألفاظ من القصيدة: (الطلول، الأحبة،

[1] أحمد بقار، البنية الأسلوبية النظرية والتطبيق، دار النابغة للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، 1436م، ص121 .

[2] ابن شهيد الأندلسي، الديوان، ص111 .

مخبر، القوم، الأهل، القصر، الخلافة، حزني...). وغيرها من الألفاظ التي استخدمها الشاعر ليوصل أفكاره .

-**الطلول:** هي بقايا وأثار الديار أو القصور استخدمها الشاعر الطلول دلالة عن الدمار والخراب .

-الفراق: الإنفصال، وبسبب البعد الذي أصاب بناء قرطبة بعد الفتنة .

-أنجدوا أم أغوروا: دلت اللفظتين عن عز إلى ذل ومن قوة إلى ضعف .

-متفطر: اختار الشاعر لكلمة تفطر التي تعني التشقق والتصدع ليبرز مدى عمق حزنه وتقطع قلبه وتحسره على بلده .

- دلالة العبارات:

إن القصيدة غنية بعبارات طويلة كانت أم قصيرة حاملة لمعاني ودلالات عميقة تبرز قدرة الشاعر على ترجمة وحالته النفسية والحزينة وتصوير أفكاره وأحواله. ومن هذه العبارات قول الشاعر في بداية قصيدته:

ما في الطلول من الأحبة مخبر فمن الذي عن حالها نستخبر[1]

الشاعر من خلال هذه العبارات يقف على أطلال قرطبة فلا أحد يستطيع أن يسأله ماذا حل بها وبأهلها. وفي قول الشاعر:

فلمثل قرطبة يقل بكاء من يبكي بعين دمعها متفجر

فحب الشاعر وتعلقه بمدينته جعلته يذرف الدموع من ذكرياتها ونعيمها ورخائها وعاش في أحضانها. وقوله أيضا:

جار الزمان عليهم فتفرقوا في كل ناحية وباد الأكثر

[1] ابن شهيد الأندلسي، الديوان، ص109 .

رأى الشاعر من خلال عبارة (جار الزمان) أن ما جرى لقرطبة مرده جور الزمان الذي غدر بهم وعبارتين (تفرقوا في كل ناحية) وقوله باد الأكثر توحي بالأثر البالغ حيث أن أغلبهم ضمتهم القبور ومنهم من تشتتوا وتشردوا .

وفي قول ابن شهيد:

عهدي بها و الشمل فيها جامع من أهلها والعيش فيها أخضر

توحي عبارة عهدي بها والشمل فيها جامع على ما تنفرد به قرطبة من تماسك أهلها والألفة والمحبة بينهم، والعيش فيها أخضر دلالة على رغد العيش والرخاء وكيف كانت قرطبة متطورة حضاريا واقتصاديا. وقول ابن شهيد:

والجامع الأعلى يغص بكل من يتلو ويستمع ما يشاء وينظر

العبارات التالية تصف لنا الجامع الأعلى بقرطبة الذي يمتلئ بالناس الذي يقدمون إليه من خلال العبادة أو تلاوة القرآن أو حفظه...وآخرون ذهبوا إليه من خلال تلقيهم للخطب وحلقات العلم والدروس.

الفصل الثالث:

رثاء مدينة طليطلة

أولا: التعريف بالمدينة طليطلة

ثانيا: نماذج شعرية من رثاء طليطلة الأندلسية

أولا: التعريف بمدينة طليطلة

كانت طليطلة عاصمة المملكة القوطية، ثم كانت بعد فتح المسلمين للأندلس من أعظم وأهم القواعد الأندلسية. وقد لبثت أيام الدولة الإسلامية موئلا لثروات المولدين والبربر وكان المولدون أو المسلمون الإسبان، هم عنصر سكانها الغالب ومن ثم فإن ولاءهم للحكومة الإسلامية لم يكن قويا. وقد لاقت حكومة قرطبة في إخضاعها وحكمها متاعب وصعابا جمة، وفوق ذلك فقد كانت طليطلة بموقعها على المنحدرات الصخرية العالية الممتدة حتى ضفاف. الذي يحيط بها من الشرق والغرب والجنوب وأسوارها الضخمة .

تقع مدينة طليطلة وسط شبه جزيرة أيبيريا على مسيرة ستين ميلا إلى الجنوب من مدريد، واختلف الروايات حول زمن بنائها فمنهم من قال : « **إنها بنيت في عهد ذي القرنين** » كما ذكر المقري، في حين ذكر الحميري « **أنها أزلية من بناء العمالقة** »، ووصف طليطلة الحميرى قوله:« **إنها مدينة حصينة ذات أسوار حسنة ، ولها قصبة حصينة ومنيعة وقلاع قوية** »[1].

كانت طليطلة أول قاعدة أندلسية هامة سقطت في أيدي النصارى، وكان سقوطها في شهر صفر 478هـ (مايو 1085م) في أيدي ألفونسو السادس ملك قشتالة وكان هذا السقوط نذيرا خطيرا بتصدع صروح الدولة الإسلامية وكان المسلمون حينما فتحوا طليطلة قد استبقوا كثيرا من خططها ومعالمها وصروحها القوطية والرومانية القديمة[2] .

لقد كان سقوط طليطلة صدمة كبرى أصابت المسلمين في الأندلس، ومن الجوانب التي حظيت بها طليطلة الجانب العمراني لأن طليطلة كانت ملجأ لكل من الدولة الإسلامية كأهل أو لاجئا لها كأهل العلم، وبطليطلة تطور القصور الشامخة والأسوار

[1] الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص393 .

[2] محمد عبد العنان، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال – دراسة تاريخية أثرية –، ص101 .

المنيعة والبنايات الكثيرة والأبواب المتعددة وبساتينها المحيطة وقنطرتها الشامخة التي أصبحت علامة بارزة في طليطلة .

كما أن أهل طليطلة لم يكونوا على وفاق في ما بين أنفسهم وأن حزبا سياسيا يدعى (المدجن) كان تنظيمه يتواطأ مع الإسبان ويوالي إليهم .

موقف الملوك الطوائف كان ضعيفا جدا أمام ألفونسو مما يثير الألم والسخرية في أن واحد، واستهتار ألفونسو ملك قشتالة بكافة ملوك الطوائف المتخاصمين فيما بينهم مما صدى بهم إلى توحيد كلمتهم حتى دعوا إخوانهم المسلمين في المغرب (المرابطين) ليتوحدوا تحت راية واحدة في سبيل الجهاد ضد عدوهم التقليدي مولوك الإسبان في بلاد الأندلس. وكان لتلك النكبة وقع هائل في الأندلس وفي العالم الإسلامي بأسره فأثارت فجيعة الشعر العربي فنظموا العديد من القصائد الحزينة وبكاها الكثير من الشعراء الأندلسيين[1] .

كانت طليطلة من المراكز الكبرى لحركة الترجمة والثقافة الإسلامية العربية، ومنها انتشرت الحضارة ودخلت بلاد أوربا حيث شاركت في حركة الانبعاث أو النهضة الأوربية المعروفة[2] .

ثانيا: نماذج شعرية من رثاء مدينة طليطلة

تصوير ابن العسال (أبو محمد عبد الله بن فرج اليحصبي) يرثي طليطلة:

يـــا أهـــل الأنـــدلس حثـــوا مطـــيكم فمـــا المقـــام بهـــا إلا مـــن الغلـــط
الثـــوب ينســـل مـــن أطرافـــه وأرى ثـــوب الجزيـــرة منســـولا مـــن الوســـط
مـــن جـــاور الشـــر لا يـــأمن بوائقـــه كيف الحياة مع الحيات في سفط ؟[3]

[1] توفيق محمد علي الحجاج ، صفحات من تاريخ المدن الأندلسية ، ص-ص 76-77 .

[2] مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، ص513 .

[3] حيمر مليكة، عبد العزيز بومهرة، تلقي رثاء ابن العسال لطليطلة بين التفهم والإنكار، الجزائر، مجلة العلوم الإنسانية، عدد 27 ، جوان2017م ، ص236 .

« البلاد تحتل من الأطراف لكن الأندلس احتلت من الوسط فإن طليطلة في وسط الأندلس »[1]. لما سقطت حدث إحباط شديد في كل بلاد الأندلس .

إن الشاعر عبر عنها تعبيرا مثقلا بالشؤم متنبئا بغروب شمس الأندلس، وكانت هذه الأبيات مخيفة لكل من سمعها. وقد وظف الشاعر في هذه الأبيات التشبيه والتصريع والجناس والكناية. في قوله:

الثـوب ينسـل مـن أطرافـه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

- الكناية:

أ- لغة: أن تتكلم بشيء وتريد غيره، وقد كنوت بكذا عن كذا، أو كنيت إذا تركت التصريح به .

ب- اصطلاحا: تطلق على معنيين :

1- المعنى المصدري الذي هو فعلم المتكلم، أعني ذكر اللفظ الذي يراد به لازم معناه مع جواز إرادته معه .

2- اللفظ المستعمل في ما وضع له، لكن لا يكون مقصودا بالذات، بل لينتقل منه إلى لازمة المقصود لما بينهما من علاقة واللزوم العرفي، وعلى هذا التعريف فهي حقيقة لاستعمال اللفظ في ما وضع له، لكن لا لذاته بل لينتقل منه إلى لازمة فمعناه مراد لغيره مع استعمال اللفظ فيما وضع له، واللازم مراد لذاته، لا مع استعمال اللفظ فيه فهو مناط الإثبات والنفي والصدق والكذب[2] .

الثـوب ينسـل مـن أطرافـه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

---

[1] عمر إبراهيم توفيق، الوافي في تاريخ الأدب العربي في الأندلس موضوعاته وفنونه، دار غيداء، العراق، ط1، 2012م ، ص154 .

[2] أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1994م ، ص301.

عمد الشاعر في هذا البيت إلى توظيف الكناية عن صفة الزوال وذلك من خلال توظيفه لعبارة (ثوب الجزيرة منسولا من الوسط) فهو يصور الحالة الذي ألت إليه الأندلس بعد أن أصبحت مفككة متشتة بعد أن حل الدمار وسطها .

– **التشبيه:** أول طريقة تدل عليه الطبيعة لبيان المعنى. وهو في اللغة: التمثيل .

عند علماء البيان : مشاركة أمر لأمر في المعنى بأدوات معلومة .

أركانه : مشبه، مشبه به، ووجه الشبه، أداة التشبيه[1]

مـــن جـــاور الشـــر يـــأمن بوائقـــه كيـف الحيـاة مـع الحيـات فـي سـفط؟

وضح ابن العسال من خلال هذا البيت حالة أهل الأندلس والحالة التي يعيشون فيها مع النصارى قام الشاعر بتشبيه العدو (النصارى) وهو المشبه والمشبه به (الحياة)، ووجه الشبه (الشر)، فالشاعر شبه الحياة مع النصارى بالحياة مع الأفاعي (الحيات) .

ما زال الصراع الخطير يهز كيان الأندلس، وينشر الأسى واللوعة في نفوس الناس وكأنهم في دهشة من أمرهم، فتشعل هذه الكارثة نفوس الشعراء، فيهتفوا محرضين على الجهاد بأشعار تقطر حزنا باعثة في الأعماق الحزن والأسى التي انتابته لسقوط طليطلة بيد الأعداء، فهو يستحضر صورة المرأة الثكلى لإثارة مشاعر المتلقي تجاه الحدث وذلك في قوله:

لثكلـــك كيـــف تبتســـم الثغـــور سـرورا بعـد مـا سـبيت ثغـور
أمـــا وأبـــي مصـــاب هـــد منـــه ثبيـــر الـــدين فـــا تصـــل الثبـــور
لقـد قصـمت ظهـور حـين قـالوا أميـــر الكـــافرين لـــه ظهـــورا
لقـد خضـعت رقـاب كـن غلبـا وزال عتوهـــا ومضـــى النفـــور[2]

– **التصريع:**

[1] أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المكتبة العصرية، بيروت، ص217 .

[2] المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ص239 .

حدده حازم القرطاجني بقوله: « **فإن التصريع في أول القصائد حلاوة وموقعا من النفس، لا استدلالها به على قافية القصيدة قبل الانتهاء إليها، ولمناسبة تحصل لها بازدواج صيغتي العروض والضرب، وتماثل مقاطعها لا تحصل لها دون ذلك** »[1].

فالتصريع هو أن يتفقا الشطران معا في البيت الأول في القصيدة

لثكلــك كيــف تبتســم الثغــور سـرورا بعـد مـا سـبيت ثغـور

– **الطباق:** ويقال أيضا لها التطبيق والطباق والتضاد، المطابقة في أصل الوضع اللغوي أن يضع البعير رجله موضع يده فإذا فعل ذلك قيل: طابق البعير. وقال الأصمعي: **المطابقة أصلها وضع الرجل موضع اليد في مشي ذوات الأربع** .

وليس بين التسمية اللغوية والتسمية الاصطلاحية أدنى مناسبة، ذلك لأن المطابقة أو الطباق في اصطلاح وحال البديع هي: الجمع بين متضادين مثل الليل والنهار .

أنواعه: مطابقة الإيجاب– مطابقة السلب– وإيهام التضاد[2] .

قـد خضـعت رقـاب كـن غلبـا وذال عتوهـا ومضـى النفـور

خضعت ≠ النفور نوعه طباق إيجاب

– **الجناس:**

أ– لغويا: هو مجانس لهذا وهي متجانسان وهو التجانس التؤانس، وكيف يؤانسك من لا يجانسك .

ب– اصطلاحيا: وهو المفاعلة من الجنس أيضا، لأن إحدى الكلمتين إذا تشابهت الأخرى فقد وقع بينهما مفاعلة في الجنسية . وقال ابن الأثير: « **حقيقة أن يكون اللفظ واحدا والمعنى مختلفا** »[3] .

---

[1] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح:محمد الحبيب، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط3، 1986م، ص283 .

[2] عبد العزيز عتيق، علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، 2002م، ص80 .

[3] علي الجندي، فن الجناس، بلاغة، أدب، نقد، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، 1954م، ص8 .

لثكلــك كيــف تبتســم الثغــور سـرورا بعـد مـا سـبيت ثغـور

الثغور، ثغور نوعه جناس تام أفاد إثراء الرصيد اللغوي.

رثاء سقوط طليطلة ذكرها المقري في نفح الطيب ولم يذكر ناظمها:

طليطلــة أبــاح الكفــر منهــا حماهـــا إن ذا نبـــأ كبيـــر
فلــيس مثالهــا إيــوان كســرى ولا منهــا الخورنــق والســدير
محصـــنة محســـنة بعيـــد تناولهـــا ومطلبهـــا عســـير
ألــم تــك معقــلا للــدين صــعبا فــذالله كمـــا شـــاء القـــدير
وأخــرج أهلهــا منهــا جميعــا فصاروا حيث شاء بهم مصير
وكانـــت دار إيمـــان وعلـــم معالمهــا التــي طمســت تنيــر
فعــادت دار كفــر مصــطفاة قـد اضـطربت بأهليهـا الأمـور
مســاجدها كنــائس أي قلــب علـــى هـــذا يقـــر ولا يطيـــر
فيــا أســفاه يــا أســفاه حزنــا يكــرر مــا تكــررت الــدهور
وينشـر كـل حسـن لـيس يطـوى إلــى يــوم يكــون بــه النشــور
أديلـت قاصـرات الطـرف كانـت مصــونات مســاكنها القصــور
وأدركــت فتــور فــي انتظــار لســرب فــي لواحظــه فتــور
كفــى حزنــا بــأن النــاس قــالوا إلــى أيــن التحــول والمســير
أنتــرك دورنــا ونفــر عنهــا ولــيس لنــا وراء البحــر دور
ولا ثــم الضــياع تــروق حســنا نباكرهـــا فيعجبنـــا البكـــور
مضى الإسلام فابك دما عليها فما ينفي الجوى الدمع الغزير
ونــح وأنــدب رفاقــا فــي فــلاة حيـــاري لا تحـــط ولا تســـير
ولا تجــنح إلــى الســلم وحــارب عسى أن يجبر العظم الكسير[1]

[1] توفيق محمد عبد الحجاج ، صفحات من تاريخ المدن الأندلسية ، ص77 .

يمضي الشاعر مستنكرا سقوط المدينة الحصينة على المشاعر الدينية مظهرا ما أصاب المدينة من تحول ديني، فبعد أن كانت دار الإسلام تحولت إلى دار نصرانية وأما مساجدها فقد صارت كنائس بين عشية وضحاها، وأما أهلها فقد صاروا بلا مأوى متشردين وقد وظف التناص التاريخي نافيا أن تكون الأحداث التي ألت بإيوان كسرى والخورنق والسدير مماثلة لما حدث لطليطلة لذلك تحول الناس إلى أشخاص جشعيين محبيين المال والملذات ما جعلهم يحيدون عن شؤون الدولة السياسية منها والثقافية، مما زاد الوضع سوءا وهكذا انتهكت هذه الدولة. وإذا كان المشهد المتقدم يمثل النتيجة التي آلت إليها طليطلة فإن الأبيات الآتية تمثل السبب الذي أدى إلى تلك النتيجة ففي قوله:

فـــإن مـــثلهم وأشـــد مـــنهم نجـور وكيـف يسلم مـن يجـور
أنـــأمن أن يحـــل بنـــا انتقـــام فينـــا الفسـق أجمـع والفجـور
وأكـــل للحـــرام ولا اضـــطرام إليـــه فيســـهل الأمـــر العســـير
يـزول السـتر عـن قـوم إذا مـا على العصيان أرخيت الستور[1]

الشاعر هنا يحدد أسباب الهزيمة المتمثلة بالظلم والفسق والفجور وأكل الحرام، ولجأ إلى أسلوب التفصيل لمظاهر البعد عن الدين ليعلل حدوث علامات التحول في المشهد الأول وقد قدم النتيجة (علامات التحول) على السبب (البعد عن الدين)، لأن سقوط طليطلة وما أعقبه من حوادث أحدث حضورا في ذهن الشاعر من الأسباب التي أدت إلى سقوط ويقول أيضا:

خـذو ثـأر الديانـة وأنصـروها فقد حامت على القتلى النسور
ولا تهنـوا وسـلوا كـل عضـب تهـاب مضـاربا عنـه النحـور
وموتـوا كلكـم فـالموت أولـى بكـم مـن أن تجـاروا أو تجـوروا
أصـبر بعـد سـبى وامتحـان يـلام عليهمـا القلـب الصـبور

[1] المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج4، ص484 .

نخـــور إذا دهينـــا بالرزايـــا ولـــيس بمعجـــب بقـــر يخـــور

فهو يدعو إلى الثار والمقاومة والموت لإنقاذ طلبطلة فقد سار الخطاب الرثائي في ثلاثة مسارات متتابعة من حيث الغرض الفني النتيجة والسبب والعلاج إذ امتزج الحزن والعتاب والاستغراب والغضب. ويرسم الشاعر في هذه الأبيات لوحة تأملية للوطن المفقود يصف فيها جمال طليطلة ويدعو أهلها للصمود على الرغم مما حدث لها ففي قوله:

كفـى حزنـا بـأن النـاس قـالوا إلـى أيـن التحـول والمسـير
أنتـرك دورنـا ونفـر عنهـا ولـيس لنـا وراء البحـر دور
ولا ثـم الضـياع تـروق حسـنا نباكرهـا فيعجبنـا البكـور
وظـل وأرف وخريـر مـاء فـلا قـر هنـاك ولا حـرور
ويؤكـل مـن فواكههـا طـري ويشـرب مـن جـداولها نميـر[1]

يتأمل الشاعر جمال طليطلة، فيذكر حسن ضياعها التي تكثر فيه البساتين ذات الظلال والمياه الوافرة العذبة والثمار الطيبة، إذا كان الشاعر يعبر بهذه اللوحة عن إعجابه بجمال طليطلة، فإنه في الوقت نفسه يحث ويغري أهلها على البقاء والصمود فيها على الرغم من سقوطها على يد الأعداء .

حث الشاعر وانفعاله شديد والرغبة بالتحدث والمقاومة بقوله:

مضـى الإسـلام فابـك دمـا عليـه فمـا ينفـي الجـوى الـدمع الغزيـر
ونـح وأنـدب رفاقـا فـي فـلاة حيـارى لا تحـط ولا تسـير
ولا تجـنح إلـى سـلم وحـارب عسـى أن يجبـر العظـم الكسـير
أنعمـى علـى مراشـدنا جميعـا ومـا إن مـنهم إلا بصـير
ونلقـي واحـد ويفـر جمـع كمـا عـن قـانص فـرت حميـر[2]

[1] المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج6 ، ص241 .

[2] المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج6، ص242 .

استخدم الشاعر أساليب إنشائية من أمر ونهي واستفهام قوله: (ونح، وأندب، ولا تجنح، وحارب، وأنعمي). فالشاعر بعد أن صور حال طليطلة، وعرض لأسباب سقوطها، وقدم علاجا لخلاصها، شرع بتصوير أمنيته في قوله:

ألا رجـــل لـــه رأي أصـــيل بـــه ممـــا نحـــاذر نســـتجير؟
يكـــر إذا الســـيوف تناولتـــه وأيـــن بنـــا اذا ولـــت كـــرور؟
ويطعـن بالقنـا الخطـار حتـى يقول الرمح: من هذا الخطير؟
يبـــادر خرقهـــا قبـــل اتســـاع لخطـب منـه تتخسـف البـدور
يوســـع للـــذي يلقـــاه صـــدرا فقد ضاقت بما تلقى الصدور

يخاطب الشاعر مكان طليطلة ويحثهم على الحرب لتحرير طليطلة، وأمنيته تكشف عن واقع سياسي مرير.

فهذه النكبة قد هدت كيان المسلمين وقصمت ظهورهم رعبا وخوفا، وذلك بعد سقوط المدينة طليطلة، وامتلاك ألفونسو السادس لزمام الأمور، وتوالي المحن، وانعدام السرور .

أمـــا وأبـــي مصـــاب هـــد منـــه ثبيـــر الـــدين فاتصـــل الثبـــور
لقـد قصـمت ظهـور حـين قـالوا أميـــر الكـــافرين لـــه ظهـــور
تـرى فـي الـدهر مسـرورا بعـيش مضـــى عنـــا لطيتـــه الســـرور

كان للأحداث التي حلت بطليطلة بعد دخولها في حوزة النصارى أثر كبير في نفوس الشعراء وخاصة بعد أن حولوا مسجدها إلى كنيسة وضيقوا على المسلمين في أداء شعائرهم فيحررها على التنصر .

وهنا بكى طليطلة المنكوبة شاعر من شعراء الأندلس مصورا ما حل بالمسلمين من ذل وهوان. ثم يتساءل الشاعر في غمرة الأحداث والمأساة، أليس في الأندلس أبي النفس شهم ينقذ طليطلة ويحررها من الكفر في قوله:

أليـس بنـا أبـي الـنفس شـهم يـدير علـى الـدوائر إذ تـدور
لقـد خضـعت رقـاب كنـا غلبـا وزال عتوهـا ومضـى النفيـر

وهــان علــى عزيــز القــوم ذل وسامح فـي الحريم فتـى غيـور[1]

قول الأديب الشهير أبي البقاء صالح بن شريف الرندي:

كــذا طليطلــة دار العلــوم فكــم مــن فاضــل قـد سـما فيهـا لــه

طليطلة عظيمة القطر، كثيرة البشر وهي كانت دار الملك بالأندلس حين دخلها طارق وهي حصينة لها أسوار حسنة وقصبة حصينة وهي أزلية من بناء العمالقة وهي على ضفة النهر الكبير.

[1] فورار محمد بن لخضر قراءة نماذج في رثاء وممالك أندلسية ، ص133 .

[2] عيسى بن محمد الشامي، رثاء الأندلس (لأبي البقاء الرندي)، كنوز الأندلس، د.د، د.ب، د.ط، د.ت، ص38 .

الفصل الرابع:

رثاء مدينة إشبيلية

أولا: التعريف بالمدينة إشبيلية

ثانيا: نماذج شعرية من رثاء إشبيلية الأندلسية

أولا: التعريف بمدينة اشبيلية الأندلسية

وسميت إشبيلية بالمدينة المنبسطة، وهي مدينة في غرب الأندلس وجنوبيه على القرب من البحر المحيط ، وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. ولها عدة كور في جنوبي نهرها وشماله، فأما كورها في جنوب نهرها وهي الأكثر: كورة أركش، وكورة شريش، وكورة طريف، وأما التي في شمالي النهر فكورتان: إحداهما كورة أوتة، ومن الممالك المضافة لإشبيلية أيضا مملكة شلب، وهي كورة ومدينة في غربي إشبيلية وشمالها وبشلب قصر يعرف " بقصر الشراجيب " وهو الذي يقول فيه بعض الشعراء:

وسلم على" قصر الشراجيب"عن فتى لـه أبـدا شـوق إلـى ذلـك القصـر[1]

وقد وصف ابن حمديس أحد قصور المعتمد باشبيلية فيصفه بالجمال الذي لا يبلى فيه العز، بل هو متجدد دائما يفوق جمال إيوان كسرى، وفي هذا القصر قدسية يخشع لها الجميع، وهذا القصر مفتوح لجميع الناس كما أن أبواب القصر تستقبل الزوار بالترحيب. كما قام ببناء هذا القصر بناة مهرة بكل دقة و إتقان، ومهاراتهم تفوق مهارة البشر، لذا خرج هذا القصر خرج هذا القصر بأروع ما يكون، كما أن هذا القصر صحي حيث تدخله الشمس منذ الصباح، ويشبه ابن حمديس جمال القصر في الليل بجمال كحلة العيون، يقول:

ويـــا حبـــذا دار قضـــى الله أنهـــا يجـــدد فيهـــا كـــل عـــز ولا يبلـــى
مقدســـة لـــو أن موســـى كليمـــه مشـى قـدما فـي أرضـها خلـع الـنعلا
ومـــا هيـــا إلا خطـــة الملـــك التـــي يحـــط إليهـــا كـــل ذي أمـــل رحـــلا
إذا فتحـــت أبوابهـــا خلـــت أنهـــا تقـــول بترحيـــب لـــداخلها: أهـــلا
وقـد نقلـت صـناعها مـن صـفاته إليهـــا أفانينـــا فأحســـنت الـــنقلا

[1] أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، الصبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م، ج5 ، ص-ص225-226 .

فمن صدره رحبا ومن نوره سنا ومن صيته فرعا، ومن حلمه أصلا
فأعلت به في رتبة الملك ناديا وقل له فوق السماكين أن يعلى
نسيت به إيوان كسرى لأنني أراه له مولى من الحسن لا مثلا
كان سليمان بن داوود لم يتبع مخافته للجن في شيده مهلا
كان عيون السحر نافذة له على كل بان غاية منه أو فضلا
فجاء مكان القول نبعث وصفه رقيقا، وأذن الدهر تسمعه جذلى
تجوز له الأمواه بركة جدول تخال الصبا منه مشطبة نصلا
إذا اتخذتها الشمس مرآة وجهها أحاطت عليها من مداويها صقلا
ترى الشمس فيه لقية تستمدها ألف أقامت من تصاويرها شكلا[1]

وباشبيلية مكان يدعى (بدربد) وهو مرج أخضر كأنه زمرد، ونهر يتكسر ماءه كأنه عسل ممزوج لشارب، فإبتنى به أبنية رفيعة الا أنها خيام، وفيها يقول الوزير:

لعمري لما يوم من الدهر كله بأنعم من يوم حللنا بدربد
لدن روضة خضراء ما إن لعمرك إلا معدنا للزمرد

يصف الشاعر هذا المكان الجميل بدربد بالروضة الخضراء ذات المياه العذبة، فكل من يراها يحسبها الزمرد، وإن أنعم يوم يمر على الشاعر هو اليوم الذي يحل فيه في بدربد حيث صفاء الوجه الجو والمناظر الخضراء الجميلة التي تروح عن النفس فتجلب السعادة والفرح .

أما بالنسبة للإقتصاد الاشبيلي ،الإنتاج الفلاحي هو الذي يسد حاجيات هذا المجتمع من الموارد الأساسية ومن هنا كانت أهمية المناطق القروية عظيمة بصفتها

[1] شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تح: مفيد القميحة، دار الكتب العلمية ، بيروت، د.ط، د.س ، ج1، ص408 ، أنظر ، أبو محمد عبد الجبار بن أبو بكر ابن حمديس الصقلي، الديوان،،صححه وقدم له إحسان عباس ، دار الصادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1960 م ، ص-ص 378 – 379 .

المنتج للموارد الفلاحية، وبالرغم من سيادة مظاهر الثمين في اشبيلية قامت الأرياف المجاورة بدور رئيسي، عرفت اشبيلية استغلالا فلاحيا واسعا يؤكده ارتفاع عدد سكانها يعتمد أساسا على اقتصاد معاشي فيما يتعلق بمنتوج القمح الذي يكون المصدر الأساسي للغذاء .

كما انتشرت الصناعات في مختلف الأبحاث حيث تخصصت كل ناحية في إنتاج صناعة معينة تكمل بها حاجيات النواحي الأخرى فعلى سبيل المثال تخصصت في صناعة الطرز الذهبي وصناعة الزرابي والأساور المذهبة ولقد ساعدت الظروف الطبيعية على اتساع المدينة ونموها المطرد وامتدح الشعراء والكتاب هواءها الخفيف ونهرها الرائع ومنشاتها الجميلة .

أما الحياة الاجتماعية فإن شأن المدن الأندلسية الأخرى تميز سكان إشبيلية باختلاف أصولهم العرقية، كان للعنصر العربي في اشبيلية تأثير قوي على المستوى السياسي والثقافي، أما العنصر البربري فلم تكن له أهمية ولا تأثير في اشبيلية، يصعب الحديث عن صراع طبقي في ظروف لم يوجد فيها الوعي الطبقي على نظام واسع[1] .

وفي كانت اشبيلية أيام الدولة الإسلامية، أعظم مدن الأندلس و أجملها وكانت أعظم وأجمل من قرطبة ذاتها.وقد سطعت أيام بني عباد، إذ كانت دار الملك وغدت أيام الموحدين مركز الحكم مرة أخرى، وسقطت في أيدي القشتاليين في 27 رمضان سنة 646هـ (23 نوفمبر 1248)، اعني بعد سقوط قرطبة 12 عاما، وغدت من ذلك الحين حتى أوائل القرن السادس عشر، دار الملك في قشتالة.

[1] ينظر: محمد بن عبود ، التاريخ السياسي والإجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف، مطابع الشيوخ، قطوان، د.ط، 1983 م، ص، ص178،173 .

وما تزال إشبيلية حتى اليوم أجمل مدن الأندلس وأوفرها سحرا، بل هي في الواقع من أجمل المدن الإسبانية وقد أصيغت عليها العناية الدول والعصور المتعاقبة،طابعا من الروعة والجلال،يمثل في صروحها ومعاهدها الفخمة وآثارها التاريخية الكثيرة .

وقد سميت اشبيلية اشتقاقا من اسمها اللاتينية(أشبالي) أو هسبالي hispalis وهي تسمى أيضا في الأدب الأندلسي "**حمص**" وذلك لأنه قد نزلها عند الفتح جند حمص الشام. وأطلق عليها هذا الاسم لما لمسوه من شبه بين المدينتين في الموقع والخطط والتربة .

وتعد اشبيلية اليوم ين المدن الإسبانية الكبيرة، ويبلغ سكانها نحو ربع مليون نسمة،وهي تأتي بعد بلنسية من حيث فخامتها وعدد سكانها[1] .

إشبيلية مركز حركة ثقافية عريقة، وبها جامعة قديمة ترجع إلى قرنين تحتوي على كليات الآداب والحقوق والعلوم والطب وبها دار محفوظات ويضم وثائق ثمينة تتعلق باكتشاف أمريكا والمستعمرات الإسبانية الأمريكية .

خلدت إشبيلية أهم الآثار الأندلسية كقلعة جابر التي تقع جنوب شرق اشبيلية اشتهرت بأهميتها الدفاعية لحصانتها وجددت في عهد أبي يعقوب يوسف أحد خلفاء دولة الموحدين .

إشبيلية من المدن التي كافحت غزو النصارى ببسالة وضراوة وعزم وإيمان وتصميم إشبيلية العتيدة، قلعة المعتضد بن عباد وعرين ابنه المعتمد، وكان من المخجل أن يشترك في هذه المعركة " أمير" مسلم وهو ابن الأحمر في مساعدة النصارى بالمدد والعدد انتقاما من أهل اشبيلية لرفض الخضوع لطاعته[2] .

ثانيا: نماذج عن رثاء مدينة إشبيلية الأندلسية

[1] محمد عبد الله عنان ، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ، ص48 .

[2] مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، ص529 .

وصف ابن اللبانة الناس في مدينة اشبيلية قائلا: «...**وخرج الناس من منازلهم يسترون عوراتهم بأناملهم، وكشف وجوه المخدرات العذارى، ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى** » .

وصف المعتمد بن عباد ذلك شعرا قائلا:

لمـــا تماســـكت الـــدموع وتنبـــه القلـــب الصـــريح
قـــالوا الخضـــوع سياســـة فليبـــد منـــك لهـــم خضـــوع
وألـــذ مـــن طعـــم الخضـــو ع علـــى فمـــي السـم النفيـع[1]

جمع هو ما بعث من أهله وحملتهم السفن على نهر إشبيلية اجتمعوا بضفتي الوادي وبكوا بالدموع على منازلهم التي تركوها للمستعمر .

دخل إلى السجن هو وعائلته وضيق عليهم فيه، وقتل ابناؤه الأربعة بيد المرابطين وأخذت ابنته على أنها جارية .

قال أبو الطيب صالح بن شريف الرندي في مرثيته (اشبيلية):

وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض وملأن[2]

مدينة إشبيلية يخترقها نهر الوادي من جانبها الغربي .

مرت اشبيلية بحقب تاريخية مختلفة ولا سيما بإقامة مملكتها التي دامت ردحا من الزمن بعد انهيار الدولة العامرية متميزة بالزعامة السياسية والقوة العسكرية وفضلا عن ذلك قد ارتفع حجمها بين دول الطوائف في كافة المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية. كما وصف ابن زيدون جنات اشبيلية في أيام بني عباد قائلا:

وليـــل أدمنـــا فيـــه شـــرب مدامـــة إلـــى أن بـــدا للصـــبح فـــي الليـــل
وجاءت نجوم الليل تضرب في الدجى فولـت نجـوم الليـل والليـل مقهـور

[1] عمر إبراهيم توفيق ، الوافي في تاريخ الأدب العربي الأندلسي موضوعاته وفنونه ، دار غيداء ، العراق ، ط1 ، 2012 م ، ص91 .

[2] توفيق محمد عبد الحجاج،صفحات من تاريخ المدن الأندلسية، ص 34.

فجزنـا مـن اللـذات أطيـب طيبهـا ولـم يعرنـاهم ولا عـاق تكـدير[1]

يقول المعتمد بن عباد في رثاء إشبيلية:

بكـت أن رأت إلفـين ضـمهما وكـر مساء، وقد أفنى على إلفها الدهر
بكـت ولـم تـرق دمعـا وأسـبلت عبـرة يقصـر عنهـا القطـر مهمـا القطـر
وناحـت فناجـت واسـتراحت سـرها ومـا نطقـت حرفـا يبـوح بـه سـر
فمـا لـي لا أبكـي ؟ أم القلـب صـخرة وكم صخرة في الأرض يجري بها نهر
لكـن واحـدا لـم يشـجها غيـر فقـده وأبكـى لآلاف عديـدهم كثـر[2]

يعبر المعتمد عن الحزن والشجا القطر مهما همى وسال يقول كأنما أراحها من سرها الدفين سر حزنها على إلفها الذي فقدته.

يقول ابن هارون:

ياحمص اقصدك المقدور حين رمى لـم يـرع فيـك الـردى إلا ولا ذممـا
جـرت عليـك يـد للـدهر ظالمـة لا يعدل الـدهر فـي شـيء إلا حكمـا
مـا كنـت أحسـب أن الحادثـات إذا همت بك السوء لا تلقي لك السلما
ويمموا حمص فـي جمـع يضيق بـه ذرع الفضـاء فسـوى الوهـد والأكمـا
فـالبحر بالمنشـآت ارتـج مـن ذعـر والبـر بالمرهفـات ارتـاع فاكتتمـا
واستوطنوا القبر في الوادي وقام لهم جسر من الفلك لا تشكو به السأما
فكم أسارت غدت فـي القيد موثقـة تشكو مـن الـذل إقـداما لهـا حطمـا
وكـم صـريع رضـيع ظـل مختطفـا عـن أمـه فهـو بـالأمواج قـد فطمـا
يـدعو الوليـد أبـاه وهـو فـي شـغل عـن الجـواب بـدمع سـال وانسـجما
فكـم تـرى والهـا فـيهم ووالهـة لا يرجـع الطـرف أن حاورتـه الكلمـا
لهفـي علـيهم ومـا لهفـي بمغنيـة عمـن تبـدل بعـد النعمـة النقمـا

[1] توفيق محمد علي الحجاج،صفحات من تاريخ المدن الأندلسية، ص 32،33.

إنـا إلـى الله قـد حـل المصـاب ومـا ... مـن حيلـة الـذي أمضـى ومـا حتمـا
فـي كـل حـين تـرى صـرعى مجدلـة ... وآخــرين أســاري خطــبهم عظمــا
وقـد أحاطـت بنـا الأعـداء فـاغرة ... أفواههـا تبتغـي أرواحنـا طعمـا
عـادت سـوارا علـى سـور المدينـة قـد ... أفتـاه عضـا وكـم مـن معصـم قصـما
تمضـي العـزائم والأقـدار تسـعدها ... فــلا تــرد لهــا الأيــام معتزمــا
وكـم بطريانـة أبقـى الأسـى نـدبا ... فـي القلـب يبعـث وجـدا كلمـا كلمـا
يا عين فابكي على حمى وقولي لها ... منـك البكـاء إذا مـا ترسـليه دمـا[1]

ويصف الشاعر ما آل إليه حال اشبيلية بعد أن دخلها النصارى، ويصور اشبيلية وهي في حالة بؤس، وبين صورتها أن كانت أمنة مطمئنة ويترحم على تلك الأيام التي تقضت وكأنها حلم من الأحلام وتجري دموعه حارة على ضياع اشبيلية التي اهتزت لضياعها الدنيا، وتمثلت أركان الإسلام لسقوطها .

ومنها في وصف الحصار ومصائبه، واستنهاض همم أهل العدوة:

ويممـوا حمـص فـي جمـع يضـيق ... ذرع الفضـــا بالمرهفـــات المـــاع
واستوطنوا القبر في الوادي وقام لهم ... جسر من الفلك لا تشكو به السأما
فكـم أسـارى غـدت فـي القيـد موثقـة ... تشـكو مـن الـذل أقـداما لهـا حطمـا
وكـم صـريع رضـيع ظـل مختطفـا ... عـن أمـه فهـو بـالأمواج قـد فطمـا
وكـم بطريانـة أبقـى الأسـى نـدبا ... فـي القلـب يبعـث وجـدا كلمـا كتمـا
يـاعين فـابكي علـى حمـص وقـل لهـا ... منـك البكـاء إذا مـا ترسـليه دممـا
وقـد أصـيبت بهـا الـدنيا وسـاكنها ... حقـا وأصـبح ركـن الـدين قـد ثلمـا
سـطا بهـا الكفـر إذ قـل النصـير بهـا ... فمـن معـز بهـا الإسـلام مـا سـلما

[1] ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار المغرب، ص381 .

إن معاني الشاعر ليس فيها جديد فهو يصف ضخامة الجيش وحصاره البري والبحري للمدينة فهو يرسل دمعه حزنا وأسفا على أولئك الأطفال الذين ابتلتهم الأمواج بعد أن خطفهم الأعداء من غير ذنب، وعلى أولئك الأسرى الموثقين بقيود الذل .

والأكبر من ذلك أن هذه المدينة من قواعد الإسلام العظمى الباقية بيد المسلمين، فبسقوطها وتحولها إلى دار الكفر حدثت في الإسلام ثلمة تدس لها القلوب، لذا نرى الشاعر يتلفت حوله مذعورا باحث عم منجد ونصير يعيد للإسلام عزه ومجده .

ولا تطيل حيرة الشاعر إذ سرعان ما يوجه نداء إلى إخوان العقيدة في عدوة المغرب قائلا:

يـا أهـل وادي الحمـا بالعدوة انتمشـوا هـذا الـذماء فقـد أشـفى بـه سـقما
مـــاذا يبطـــئكم عنـــا وحـــولكم إن تبصـروا دار قـوم أصـبحت رممـا
وحقنـــا واجـــب فالـــدين يجمعنـــا مـع الجـوار الـذي مـا زال منتظمـا
وقـد دعونـا فأسـمعنا علـى كتـب بنـا قـد اسـتنفد القرطـاس والظمـأ[1]

ولفة الشاعر فيها قوة لأنه يطالب بحق الإسلام الذي جمع كل المسلمين ويجعلهم أخوة ووحدة متماسكة، فهو يخص أهل العدوة على النجدة ويعجب من تأخرهم في ذلك رغما سماعهم صراخ جيرانهم أهل اشبيلية الذين اشرفوا على الهلاك ، وعلى الرغم من ذهاب صوت الشاعر أدراج الرياح، ولم يستجيب له أحد فانه يكون قد أدى واجبه بإيجابية تراوحت بين الرثاء والحزن العميق على فقدان المدينة الإسلامية .

ومن الشعراء الذين شخصوا الألم ووضعوا أصابعهم على الجرح النازف " أبو حفص الهوزني" الذي استشهد بكلمة الحق ورد الظلم ومن شعر الهوزني الذي وجهه إلى المعتضد بن عباد ملك إشبيلية قوله:

أعبـاد، جـل الـرزء والقـوم هجـع علـى حالـة مـن مثلهـا يتوقـع

[1] شاهد عوض الكفاوين، الشعر العربي في رثاء الدول والأمصار حتى نهاية السقوط الأندلس، ص-ص 258- 259.

فلــق كتــابي مــن فراغــك ســاعة وإن طال، فالموصوف للطول موضع
إذا لــم أبــث الــداء رب دوائــه أضــعت، وأهــل للمــلام المضــيع

ويستمر الهوزني في تحريضه للمعتضد على الجهاد، واسترجاع الديار الإسلامية التي سلبها النصارى .

ونجد أيضا من الشعراء الذين بكوا وتحسروا على أيام المعتمد الخوالي ولعل ابن البانة هو الشاعر الأول الذي حمل هذه الراية قوله:

تبكــي الســماء بمــزن رائــح عــاد على البهاليــل مــن أبنــاء عبــاد
علــى الجبــال التــي هــدت قواعــدها وكانــت الأرض مــنهم ذات أوتــاد
وكعبــة كانــت الآمــال تخــدمها فــاليوم لا عــاكف فيهــا ولا بــاد
يــا ضــيف أفقــر بيــت المكرمــات فخــذ فــي ضــم رحلــك واجمــع فضــلة الــزاد
ويــا مؤمــل واديهــم ليســكنه خــف الفطــين وجــف الــزرع بــالوادي
وأنــت يافــارس الخيــل التــي جعلــت تختــال فــي عــدد مــنهم وأعــداد
ألــق الســلاح وخــل المشــرقي فقــد أصــبحت فــي لهــوات الضــيغم العــادي
لمــا دنــا الوقــت لــم تخلــف لــه عــدة وكــل شــيء لميقــات وميعــاد
كــم دراري ســعد قــد هــوت ووهــت هنــاك مــن درر للمجــد أفــراد[1]

وتدور هذه الأبيات على التفجع على ما أصاب بني عباد، ووصف خلو إشبيلية والأندلس منهم وضياع ما كانوا يكرمون به الناس، ووصف لحظات هزيمة المعتمد وصيرورته مع أهله والتأسي لما أصاب العباسيين من مآس ونكبات .

[1] محمد مجيد السعيد، ابن اللبانة الداني ، دار حامد ، الأردن ، د.ط، 1977م، ص40 .

الخاتمة

في نهاية بحثنا هذا « **رثاء المدن في الشعر الأندلسي نماذج مختارة** » ، توصلنا إلى جملة من النتائج نوجزها كما يلي:

– تنوعت الأغراض الشعرية في بلاد الأندلس بين وصف للطبيعة وغزل وهجاء،ومديح، ورثاء .

– الرثاء فن من فنون الشعر و غرض من أغراضه وهو ذكر مآثر الميت و مناقبه وفيه يذكر الشاعر الصفات والمواقف والحسنات للمرثي .

– اتخذ الرثاء في البيئة الأندلسية عدة ألوان منها الندب، والتأبين والعزاء .

– تعتبر بلنسية أكبر المدن الإسبانية وهي بستان الأندلس لكثرة رياضها وتنوع أشجارها ولكثرة شعرائها وأدبائها في وصفها والتغني بها .

– سقوط مدينة بلنسية ترك أثرا نفسيا واضحا في الشعراء الأندلسيون منهم أبي البقاء الرندي، ابن الآبار ووصفوا ما ألت إليه بعد السقوط .

– اشتهرت قرطبة من بين العواصم الإسلامية بكثرة مساجدها، وهي ثالث أكبر المدن مساحة.

– كان سقوط طليطلة نكبة كبرى ونقطة التحول في تاريخ الأندلس .

– إشبيلية روعة القصور الأندلسية في إسبانيا .

– إن شعر رثاء المدن موضوع مهم وهو ثمرة من ثمرات تجارب الشعراء وإحساسهم بمعاناة مدنهم وأوطانهم .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم رواية ورش

ثانيا : المصادر

1-ابن الآبار (أبو عبد الله محمد القضاعي البلنسي)، ديوان ابن الآبار، تح : عبد السلام هراس ،وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، الرباط، ط1، 1999م.

2-الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ط، 2002م.

3-الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب)، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط7، 1998 م.

4-حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح:محمد الحبيب، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط3، 1986م.

5-ابن حزم (أبو محمد علي الأندلسي)، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، تح: حسن كامل الصيرفي، مكتبة معرفة، دمشق ، د ط ، د ت .

6-ابن حمديس (أبو محمد عبد الجبار بن أبو بكر الصقلي) ، الديوان،،صححه وقدم له إحسان عباس ، دار الصادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1960م.

7-الحميري (أبو عبد الله بن عبد الله بن عبد المنعم) ، روض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1988م

8- ابن خفاجة (أبو الفتح بن عبد الله) ، ديوان ابن خفاجة، تح:عمر فاروق الطباع، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ط، 2006م .

9- ابن رشيق المسيلي القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: عبد الحميد الهنداوي، المكتبة العربية، لبنان، ط1، 2001م، ج1.

10-الزهري(أبي عبد الله محمد بن أبي بكر) ، كتاب الجغرافية، تح: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، دمشق، 1968م.

11-ابن شهيد الأندلسي، ديوان ابن شهيد الأندلسي، تح: زكي يعقوب، مراجعة: محمود علي مكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1900 م.

12-ابن عذاري (أبو عبد الله محمد بن محمد المراكشي) ، البيان المغرب في أخبار المغرب، تح ومراجعة: ج.س كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة ، بيروت ، 1983 م ، ج3 .

13-ابن قدامة (أبو الفرج بن جعفر) ، نقد الشعر ، تح: كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي للطبع والنشر، القاهرة ، ط3 ، دت .

14-القلقشندي (أبو العباس أحمد)، الصبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م، ج.5

15-ابن قيبة (عبد الله بن مسلم الدينوري)، الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، د.ط، 1982م.

16-المقري (أحمد بن محمد التلمساني)، نفح الطيب من غصن الأندلس، دار صادر، بيروت، ط1، 1997م، ج3 .

17-النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تح: مفيد القميحة، دار الكتب العلمية ، بيروت، د.ط، د.س ، ج1.

ثالثا : المراجع

1- أحمد مجيد السعيد، ابن اللبانة الداني ، دار حامد ، الأردن ، د.ط، 1977م.

2-إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة – ، دار الثقافة ، بيروت ، 1960 م .

3-أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المكتبة العصرية، بيروت.

4-أحمد بقار، البنية الأسلوبية النظرية والتطبيق، دار النابغة للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، 1436م،.

5-أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1994م.

6-إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991م.

7-توفيق محمد علي الحجاج، صفحات من تاريخ المدن الأندلسية، دار الضياء، عمان، ط1، 2005م.

8-حمدو طماس، ديوان الخنساء، دار المعرفة، لبنان، ط2، 2004م.

9-شوقي ضيف، الرثاء – فنون الأدب العربي الفن الغنائي –، دار المعارف، القاهرة، 1955م، ج2.

10-عبد الرحمن تبرماسين ، العروض وإيقاع الشعر العربي ، دار النشر والتوزيع ، ط1 ، 2003 م .

11-عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ط1، 1997 م.

12عبد العزيز بن سالم، في تاريخ وحضارة العرب في الأندلس، مؤسس شباب الجامعة، الإسكندرية، 1988م.

13-عبد العزيز عتيق، علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، 2002م.

14-عبد المنعم الخفاجي، الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992م.

15-علي الجندي، فن الجناس، بلاغة، أدب، نقد، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، 1954م.

16-عمر إبراهيم توفيق ، الوافي في تاريخ الأدب العربي الأندلسي موضوعاته وفنونه ، دار غيداء ، العراق ، ط1 ، 2012 م .

17-عمر إبراهيم توفيق، الوافي في تاريخ الأدب العربي في الأندلس موضوعاته وفنونه، دار غيداء، العراق، ط1، 2012م.

18-عيسى بن محمد الشامي، رثاء الأندلس (لأبي البقاء الرندي)، كنوز الأندلس، د.د، د.ب، د.ط، د.ت.

19-فورار محمد بن لخضر، الشعر الأندلسي في ظل الدولة العامرية -دراسة موضوعية وفنية-، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د.ط، 2009 م .

20-فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، ط1 ،2007م.

21-محمد بن عبود ، التاريخ السياسي والإجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف، مطابع الشيوخ، قطوان، د.ط، 1983 م.

22-محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال - دراسة تاريخية أثرية -، مكتبة الخانجي، القاهرة ط2، 1997م.

23-محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس - عصر المرابطين والموحدين -، مكتبة خانجي، القاهرة، 1997م، ج2.

24-مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت ،1973م

25-مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط2 ، 1974م ،ج3.

26-وسام قباني ، عامريات ابن دراج القسطلي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د.ط، 2011م.

رابعا : الرسائل الجامعية

1-شاهد عوض الكفاوين، الشعر العربي في رثاء الدول والأمصار حتى نهاية سقوط الأندلس، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، كلية اللغة العربية، فرع الأدب، 1984م.

2-عائشة إبراهيم، موسى سلامة محسن، صورة المرأة في الشعر الأندلسي – في عصري الطوائف وبني الأحمر –، مذكرة لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية، تخصص أدب ونقد، جامعة أم درمان الإسلامية، 2007- 2008 م.

3-فدوى عبد الرحيم قاسم، رثاء الأندلس في عصر الملوك والطوائف، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، قسم اللغة العربية، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، آيار، 2002م.

خامسا : القواميس والموسوعات والمعاجم

1-بطرس البستاني، قاموس محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، د.ط، 1987م.

2-الجوهري (إسماعيل بن حماد)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: محمد تامر، دار الحديث، القاهرة، د.ط، 2009م.

3-الزبيدي (محمد مرتضى)، تاج العروس، دار الكتب العلمبة، بيروت، د.ط، 1971م، ج7.

4-ابن فارس (أبي الحسن أحمد بن زكريا)، معجم مقاييس اللغة ، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ط، 1999م، ج2.

5-الفراهيدي (الخليل بن أحمد)، كتاب العين، تح: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م.

6-ابن منظور (أبي مكرم محمد بن علي أبو الفضل جمال الدين)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، ج14.

سادسا: المجلات

ـــــــــــ ، تلقي رثاء ابن العسال لطليطلة بين التفهم والإنكار، الجزائر، مجلة العلوم الإنسانية، عدد 27 ، جوان2017م .

الفهرس

فهرس الموضوعات

شكر وعرفان

الإهداء

المقدمة ..... أ-ج

المدخل: غرض الرثاء في البيئة الأندلسية

أولا: الأغراض الشعرية..... 7-11

أ- الوصف.....7-8

ب- الغزل.....8-9

ج- المدح.....9-10

د- الغربة والحنين.....10

هـ- الرثاء.....10-11

ثانيا: تعريف الرثاء.....11-13

أ- لغة.....11-12

ب – اصطلاحا.....12-13

ثالثا: أنواع الرثاء.....13-15

أ- الندب.....13

ب- التأبين.....13-14

ج- العزاء.....14-15

الفصل الأول: رثاء مدينة بلنسية

أولا: التعريف بمدينة بلنسية.....17-19

ثانيا: نماذج شعرية من رثاء بلنسية الأندلسية.....19-28

الفصل الثاني: رثاء مدينة قرطبة

أولا: التعريف بمدينة قرطبة.....30-32

ثانيا: نماذج شعرية من رثاء قرطبة الأندلسية.....32-39
ثالثا: تحليل الأسلوبي للقصائد.....39-41
أ- المستوى الصوتي.....39-41
ب- المستوى الدلالي.....41-43
الفصل الثالث: رثاء مدينة طليطلة
أولا: التعريف بمدينة طليطلة.....45-46
ثانيا: نماذج شعرية من رثاء طليطلة الأندلسية.....46-54
الفصل الرابع: رثاء مدينة إشبيلية
أولا: التعريف بمدينة إشبيلية.....56-59
ثانيا: نماذج شعرية من رثاء إشبيلية الأندلسية.....59-64
الخاتمة.....66
قائمة المصادر والمراجع.....68-73
فهرس الموضوعات.....75-76